عرفة عبد العلي
إيلي كوهين
جاسوس إسرائيل في سوريا

كتاب الجمهورية

مـــايو ٢٠٠٨

www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة

محمد أبو الحديد

E-mail:abuelhaded@eltahrir.net

رئيس التحرير

علي هاشــــم

E-mail:aly_hashem@gitc.com.eg

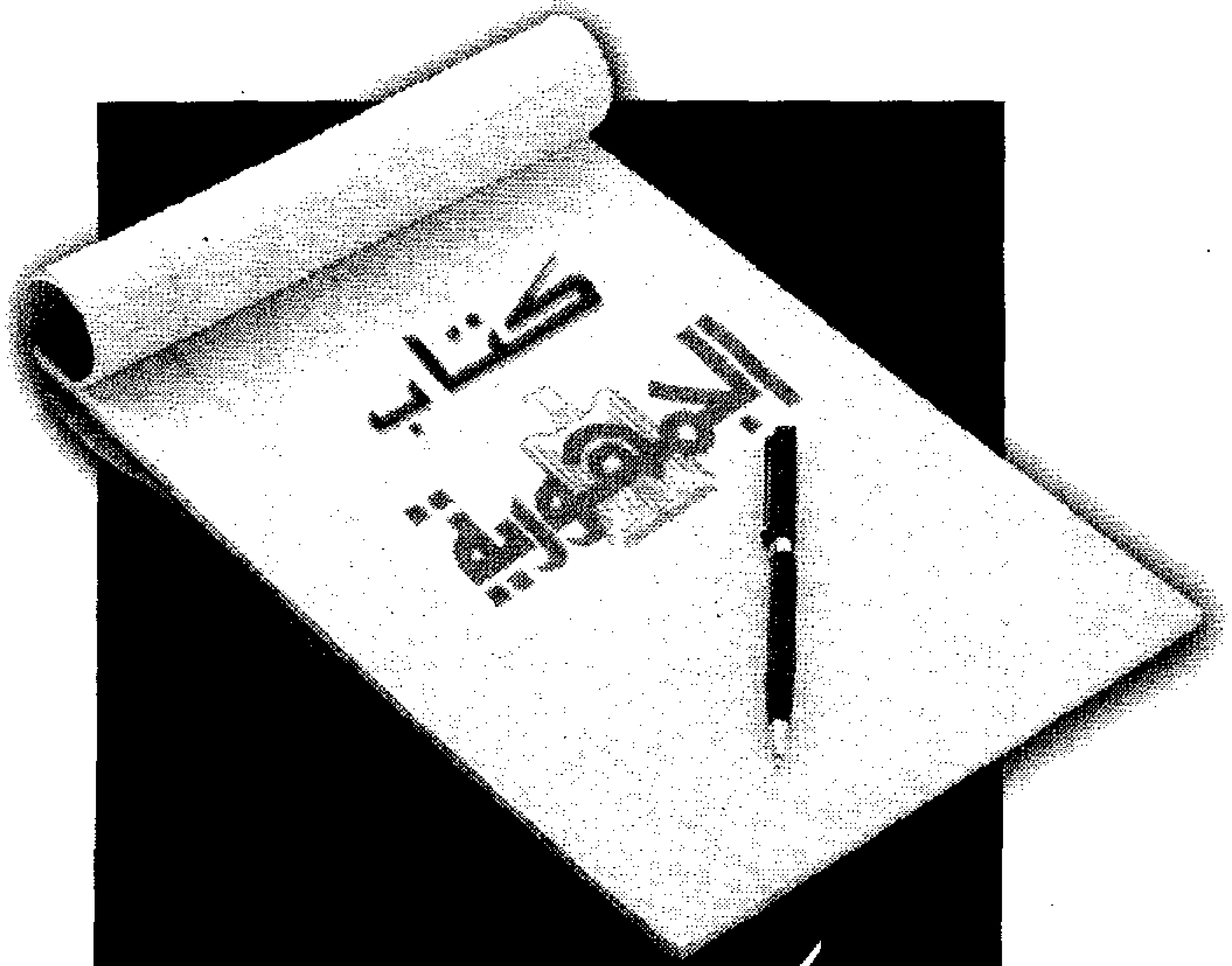

إيلي كوهين في دمشق

وحكايات أقنعة من ملفات الحرب الصامتة

عرفة عبده علي

دار الجمهورية للصحافة

١١١ــ ١١٥ ش رمسيس

ت: ٢٥٧٨٣٣٣٣

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٢٥٧٨٣٣٣٣ ٢٥٧٨١٠١٠
http://www.eltahrir.net

مـايو ٢٠٠٨

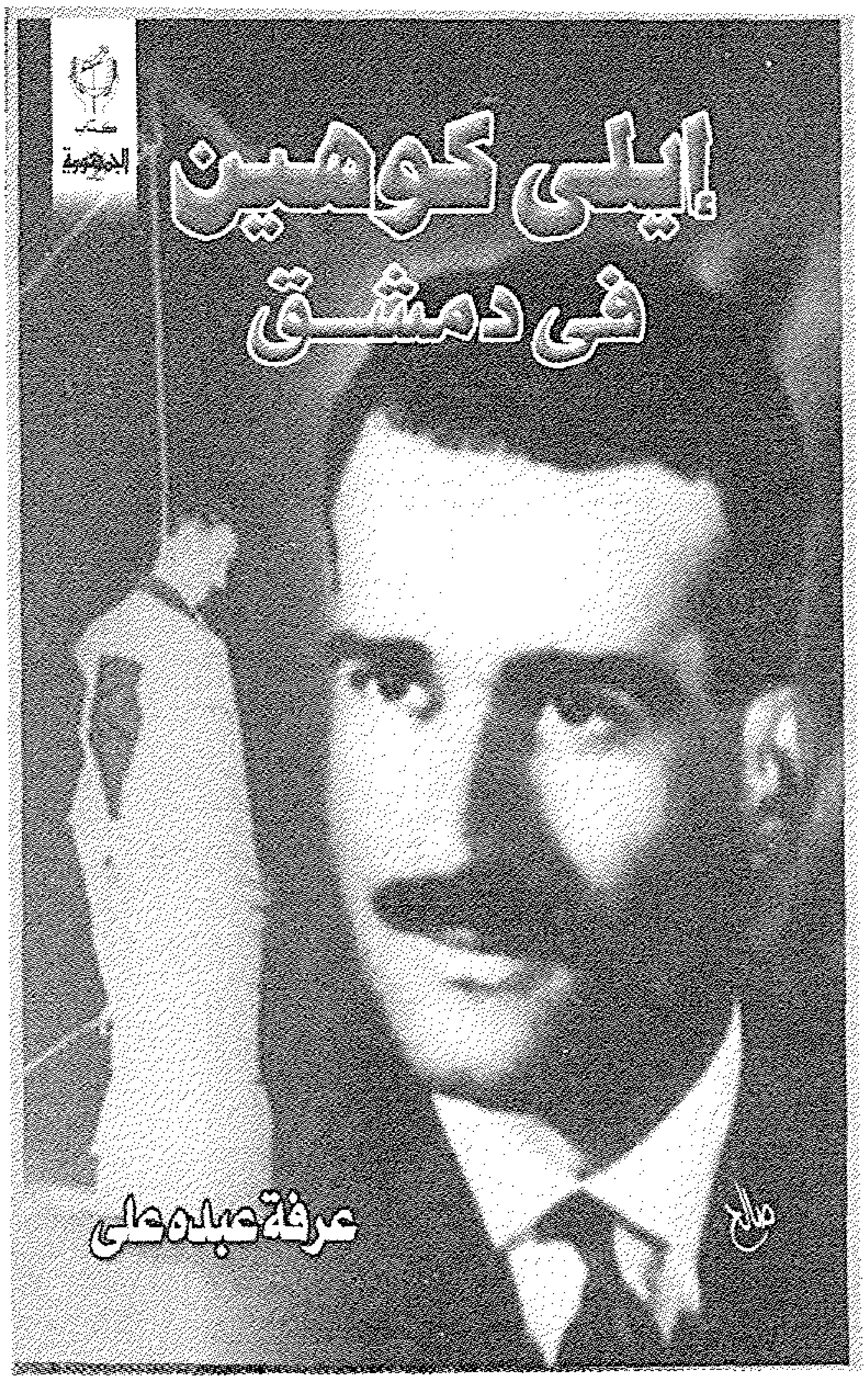

تصميم الغلاف الفنان : صالح صالح

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	١٠٠ ل.س
لبنان	٤٠٠ ل.ل
الأردن	١٫٥ دينار
الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال
البحرين	١ دينار
قطر	١٠ ريال
الإمارات	١٠ درهم
سلطنة عمان	١ ريال
تونس	٢ دينار
المغرب	٣٠ درهم
اليمن	٣٠٠ ريال
فلسطين	٢ دولار
لندن	٢ جك
أمريكا	٥ دولار
استراليا	٥ دولار استرالى
سويسرا	٥ فرنك سويسرى

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
٦٠ جنيهاً
الدول العربية ٣٠ دولاراً
أمريكيا
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
٥٨ دولارا أمريكيًا

حقوق النشر محفوظة
لـ (كتاب الجمهورية)

سكرتير التحرير
سـيد عبد الحفيظ

إيلي كوهين في دمشق

وحكايات أقنعة من ملفات الحرب الصامتة

عرفة عبده علي

تقـــديم

فور توقيع معاهدة كامب ديفيد مباشرة.. انتحى الإرهابى السابق ورئيس الحكومة الإسرائيلية «مناحم بيجين» بالرئيس الراحل «أنور السادات» جانباً، وطلب منه توقيع بروتوكول خاص بين جهاز الاستخبارات المصرية و«الموساد» الإسرائيلى من أجل التعاون وتبادل المعلومات والتنسيق ضد «الخطر والعدو المشترك»!.. وتناقل الدبلوماسيون المصريون تلك الواقعة.. وخرجت الصحف الإسرائيلية تبشر بهذا الاتفاق!

وخلال إحدى زيارات بيجين لمصر، طلب مرة أخرى أن يتوقف أى نشاط استخباراتى بين الدولتين، وتقدم بفكرة تجسد هذا التعاون، حيث طلب أن تسلم مصر لإسرائيل ملفات من كانوا يعملون لصالح الاستخبارات المصرية فى فلسطين المحتلة، على أن ترسل إسرائيل ملفات عملائها فى مصر، وأبدى السادات موافقة مبدئية!.. غير أن رجال الاستخبارات المصرية بادروا بإحراق هذه الملفات!

ومن المعروف أن «الموساد» الإسرائيلى يوجه عملياته إلى الدول العربية عامة، ولدول الجوار خاصة، وتعتبر «مصر» بالنسبة للموساد هى «العدو الأول» وتحرص جميع فروعه على جمع المعلومات فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، واستخدامها ضد مصر فى حالات السلم والحرب على السواء، وتشير التقارير إلى ضبط أكثر من ثلاث وخمسين شبكة تجسس إسرائيلية فى مصر خلال حقبة «السلام»!

ومن قبل إعلان قيام الدولة الصهيونية، كانت الفروع المختلفة للاستخبارات اليهودية وعلى رأسها: «شاى - shai» و«شين بيت - shin beth» و«علياء بيت - Alyah Beth» إلى جانب «الوكالة اليهودية».. تركز نشاطها فى مجالات التجسس على مصر، إضافة إلى نشاطها فى الدعاية للأهداف الصهيونية وإقناع اليهود المصريين بالهجرة إلى فلسطين.. ومنذ الإعلان عن قيام «الدولة اليهودية» لم تتوقف عمليات زرع الجواسيس فى دول الجوار، خاصة مصر وسوريا.. وأصبح جهاز الموساد الإسرائيلى يتمتع بشهرة عالمية، حيث واكب بعض عملياته نوع من «البروباجندا» أو الدعاية الإعلامية الموجهة!

وعلى الرغم من اهتمام «الموساد» اهتماما بالغاً بأمنه الداخلى، فإن ذلك لا يعنى أنه محصن ضد الاختراق الأمنى، وهم يذكرون تماما قصة «د.إسرائيل بيير» الذى كان نبأ القبض عليه بتهمة التجسس بمثابة صدمة هائلة للرأى العام الإسرائيلى!

كان إسرائيل بيير نائبا لرئيس الاستخبارات العسكرية «أمان» ومستشارا لشئون الأمن القومى لدافيد بن جوريون - رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك - وكانت عشيقة بيير «ديانا نهابى» قد قدمت عرضا سخيا بالتعاون بإخلاص مع المصريين، وفى يناير عام ١٩٥٧، وبعد الوثوق بها بدأ إغداق الأموال على د. بيير بحجة إعادة طبع كتابه «الشرق الأوسط بين الشرق والغرب» الذى ابتاعت الاستخبارات المصرية كل النسخ المعروضة منه! وكان المقابل أن أمدت «ديانا» الاستخبارات المصرية بأكثر من أربعمائة وثيقة تضمنت تنظيم وزارة الدفاع الإسرائيلية، خطط تسليح الجيش الإسرائيلى، بيانات عن عدد الألوية المدرعة والوحدات الملحقة بها، مخزون الذخائر، الخطط الخاصة بتنظيم التعاون بين القوات البرية والجوية، وقوائم مفصلة بأسماء كبار الضباط والقادة ومقار إقامتهم!

وأسهم هذا «السيل المنهمر» فى إطلاع أجهزة الاستخبارات المصرية، أولاً بأول، على محاضر اجتماعات القيادة الإسرائيلية

العليا، ولم يساور الموساد أدنى شك فى بيير، حتى وصلتهم معلومات مؤكدة من وكالة الاستخبارات المركزية C.I.A وألقى القبض عليه فى أبريل ١٩٦٢، وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، بعد محاكمة سرية، غير أنه توفى بالسجن فى العام نفسه.

وإذا كانت قصة «رفعت الجمال» تمثل نموذجاً لأنجح عملية زرع جاسوس فى قلب إسرائيل.. فإن قصة «إيلى كوهين» هى واحدة من أغرب قصص الجاسوسية وأكثرها إثارة وهى فى حقيقتها فضيحة وكارثة حلت بالنظام السورى منذ أكثر من أربعين عاما.. ذلك الرجل الذى لقب بـ «نجم الموساد» والذى نجح فى اختراق السلطة الحاكمة فى سوريا آنذاك، وأن يكون واحداً من رجالها وصديقا شخصيا للجنرال «أمين الحافظ» رئيس الجمهورية وعدد من أبرز الشخصيات السورية.. إنه «رفعت الجمال» على الطريقة الإسرائيلية، لكن مع فارق واحد، أن رفعت الجمال لم يكشف وظل ـ حتى دفن فى مصر ـ نموذجا للعمل السرى المثالى!

وهناك أكثر من رواية لكشفه.. أولها أن أحد رجال الاستخبارات المصرية قد تعرف عليه من صورة نشرت له على الجبهة السورية، ضمن الوفد المرافق للفريق أول «على على عامر» وكان كوهين المدنى الوحيد فى الصورة، وعرف المصريون من ملفاتهم القديمة أنه «إيلى كوهين».

والثانية وهى الأكثر شيوعاً، تؤكد أن القبض عليه جرى بعد أن اشتكت السفارة الهندية القريبة من بيته من التشويش على إرسالها فطلبت المخابرات السورية من السوفيت أن يبيعوا لها جهازاً خاصاً يتعقب التشويش.. وبعد وصول الجهاز جرى إطفاء النور عن الحى فلم تبق سوى الإشارات التى يرسلها جهاز إيلى كوهين، وكان لحسن الحظ يعمل بالبطارية وليس بالكهرباء.. وصعدت مجموعة للقبض عليه برئاسة الكولونيل أحمد سويدانى لتضبطه متلبساً وهو يرسل

تقريره بعد حفل صاخب حضره بعض المسئولين..وبجوار جهاز الإرسال كان التقرير المكتوب بخط يده!

واستمرت محاكمته عدة شهور، بذلت خلالها إسرائيل جهوداً مضنية ومارست ضغوطاً شتى من أجل الإفراج عنه.. وسارع النظام السورى بإعدامه لتطوى صفحته ومعه أسرار رهيبة تتعلق بأصدقائه من السوريين!

وفى الساعة الثالثة والنصف من فجر يوم الثامن عشر من مايو عام ١٩٦٥ خرج موكب إعدام إيلى كوهين من سجن «المزة» فى حراسة مشددة إلى قلب دمشق حيث يقف عامود الشنق منذ سنوات طويلة، ويتسلمه جلاد سوريا «أبوسليم» الذى كان فى انتظاره، وخلال ٩٠ ثانية نفذ فيه حكم الإعدام شنقاً باسم «الشعب العربى السورى».. ولكن لايزال الفصل الأخير مفتوحاً.. حيث تحاول أرملته «نادية كوهين» والحكومات الإسرائيلية المتعاقبة الحصول على رفاته ودفنها فى إسرائيل.. (ورقة سياسية مهمة فى يد النظام السورى الحالى)!

البداية.. كانت من مصر

أثناء الاحتلال البريطاني لمصر نشطت الوكالة اليهودية في الدعاية للأهداف الصهيونية وإقناع اليهود المصريين بالهجرة إلى فلسطين وأنشأت منظمة «إيليا بيث» التي تتولى تهريب المهاجرين اليهود الجدد إلى فلسطين من وراء ظهر السلطات البريطانية فرعاً مصرياً، بها يختص بتهجير اليهود المصريين وكان هذا التنظيم يستخدم السفن وعربات النقل بل وحتى الجمال في تنفيذ عمليات التهريب، وفي عام ١٩٤٤ قرر رؤساء جهاز المخابرات التابعة للهاجاناة، كبرى المنظمات الصهيونية في فلسطين أنه قد آن الأوان لتوسيع شبكتهم في مصر، وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى برزت أهمية مصر أكثر، فقد تزايد الشعور المناهض لليهود في مصر نتيجة للحركة الوطنية المصرية وإحساس المصريين بقضية فلسطين العربية، وأصبح الأمر يستلزم المسارعة بإخراج اليهود منها، ومن ناحية أخرى كان زعماء «الهاجاناه» يتوقون للاستيلاء على المخزون الاحتياطي من أسلحة الحلفاء المكدسة في مصر، وعموماً كانوا يريدون الحصول على جميع أنواع المعلومات نظراً لأن القاهرة كانت مقراً لقيادة الإنجليز في الشرق الأوسط، ومن ثم فهي أفضل مكان لمعرفة الخطط التي يضعها الإنجليز إزاء المنطقة، ما هي وجهات نظرهم إزاء إنشاء دولة يهودية في فلسطين؟ وما الذي سيفعلونه حال قيام هذه الدولة؟ لكل هذه الأسباب برزت القاهرة كمركز بالغ الجذب للمخابرات اليهودية، وكان الرجل الذي وقع عليه الاختيار لتنظيم وتنفيذ العملية الموسعة واحداً من كبار العملاء ويدعى «ليفي إبراهام» الفلسطيني المولد، وقد أرسل إلى مصر في ربيع عام ١٩٤٤ متخفياً في شخصية ضابط

بريطانى، عندما وصل ليفى إبراهام إلى مصر كان أول مكان قام بزيارته منزل إحدى عضوات المجتمع المصرى البارزات وتدعى «يولندا جابى» وهى من أسرة موسرة من يهود الإسكندرية، وقد عاشت «يولندا» فترة فى باريس واكتسبت بعض العادات الغربية، وعندما عادت إلى مصر احتلت مكانها بسرعة فى صفوف المجتمع الأرستقراطى الذى كان يضم خليطاً من نبلاء البيت المالك، والضباط البريطانيين، والباشوات المصريين.

ولم تكن يولندا جابى صهيونية، ولكن حياة التجسس كانت تستهويها بما فيها من غموض وإثارة وأموال وأضواء، وكان أكثر ما يهم ليفى فيها ما تتمتع به من اتصالات لا حصر لها بكبار الشخصيات العسكرية والسياسية فى مصر.

وعلى وجه السرعة استأجر الاثنان فيلا فى إحدى ضواحى الإسكندرية الأنيقة لتكون قاعدة لعمليات التهريب والتجسس ولكنها فى الظاهر مكان للترفيه عن جنود الحلفاء.

وكالة جرونبيرج للسفريات:

كان ليفى إبراهام هو العقل المدبر للعمليات تساعده «يولندا» بشبكة معارفها الواسعة، ولكن كان لابد من إيجاد شخص يقوم بعملية التنفيذ بما فى ذلك تقديم جميع التسهيلات اللازمة لتسفير اليهود الراغبين فى مغادرة مصر، والذين بدأت أعدادهم تتزايد باطراد وبشىء من التوفيق استطاعا الحصول على الشخص المناسب، كان شاباً يهودياً مصرياً «ابن بلد» يدعى «إيلى كوهين»، تولى إدارة «وكالة جرونبيرج للسفريات» التى أنشأها الموساد فى القاهرة كغطاء لتهريب آلاف اليهود المصريين إلى فلسطين عبر الشبكة السرية التى يديرها ليفى ويولندا، واستطاع إيلى كوهين بما لديه من مواهب متعددة وإتقانه لعدة لغات أن يطوى تحت جناحه عشرات المسئولين فى السفارات الأجنبية والسلطات المصرية بما يقدمه لهم من رشاوى وخدمات فأمدوه بما يطلب من وثائق وتأشيرات وغضوا الطرف عن مراقبته أثناء عمليات التهريب، بل أصبح لإيلى العديد من الأصدقاء المصريين ذوى النفوذ نتيجة لمؤانسته لهم فى النوادى الليلية فى القاهرة والإسكندرية، إذ كان ينفق ببذخ ويلتف حوله دائماً كوكبة من أجمل الفتيات!

وقد أدى قيام دولة إسرائيل فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨ إلى المزيد من المتاعب لليهود فى مصر، ونشطت بذلك الجهود المبذولة فى عملية الهجرة عن طريق «وكالة جرونبيرج للسفريات» وغيرها من الإمكانيات المتاحة، حتى لم يبق من الـ٧٠ ألف يهودى الذين ظلوا يعيشون فى مصر حتى بداية الحرب فى عام ١٩٤٨ سوى الثلث فى عام ١٩٥١م.

التدريب على التخابر والتدمير:

انتهت أيام ليفى إبراهام ويولندا جابى فاختفيا من مصر دون أثر، وفى عام ١٩٥١ وصل إلى مصر أحد كبار العملاء الإسرائيليين ليملأ فراغهما، ويباشر عمليات التجسس والهجرة وغيرهما من المهام، وكان يدعى «إبراهام دار» ولكنه كان يعمل تحت اسم مستعار هو «جون دارلنج» ويتخفى تحت جواز سفره البريطانى؛ إذ كان أصلاً من اليهود البريطانيين.

لكن دارلنج لم يكتف بعمليات الهجرة والتخابر، وإنما بدأ مشروعاً آخر أكثر طموحاً وهو تجنيد الشبان المثاليين من اليهود المصريين استعداداً للقيام بما قد يطلب منهم من أعمال خطيرة.

وبطبيعة الحال كان من أوائل هؤلاء المجندين «إيلى كوهين» الذى كان صهيونياً حتى النخاع، وكذلك واحدة من بطلات الرياضة فى الأوليمبياد تدعى «مارسيل نينو» وتبلغ من العمر ٢٤ عاماً، وكانت على علاقة ودية مع بعض ضباط الجيش المصرى فى أواخر حكم الملك فاروق، حيث كانت تقابلهم فى الحفلات التى يقيمها أصدقاؤها الأثرياء، أرسلها إيلى كوهين مع غيرها من الشبان المجندين إلى إسرائيل، حيث تلقوا تدريبات عملية فى أساليب التخابر والتدمير، وبقوا هناك ثلاثة أشهر فى تدريب ودراسة متواصلة لا يرون فيها سوى معلميهم وموجهيهم فقط، ثم أعيدوا إلى مصر مرة أخرى، وعندما عادوا إلى مصر عملوا تحت رئاسة أحد العملاء المحنكين ويدعى الكابتن «ماكس بنيت» ولكن المصريين كانوا يعرفونه باسم «إميل وايثبان» وكان له متجر كبير لبيع الأطراف الصناعية وكان يبيع كميات كبيرة منها للجيش المصرى، ويتردد عليه كثير من الضباط المصريين الذين عقدوا معه علاقات ود وصداقة نظراً لما لمسوه فيه من إنسانية واهتمام بالغ بجرحى الحرب!..

هؤلاء كانوا يتبسطون معه فى الحديث دون أن يدركوا أن صديقهم هذا ينقل كل ما يقولونه مباشرة إلى مقر قيادة الموساد فى تل أبيب!

وفى الوقت الذى كان بنيت ورفاقه يتلقون بين الحين والآخر التهانى من قيادة الموساد على ما يبعثون به من معلومات ثمينة، سببت تغييرات سياسية مفاجئة فى مصر - بطريق غير مباشر - فى إنهاء عمليات التجسس الناجحة التى يقومون بها، بل والوصول إلى نهاية مؤلمة!

نسف المصالح الأجنبية:

فى يوليو من عام ١٩٥٢ قاد اللواء محمد نجيب انقلاباً عسكرياً ناجحاً أطاح بالملك فاروق، وألغى الملكية وأعلن النظام الجمهورى فى مصر، وبدأت الحكومة المصرية الجديدة وفى الحال سياسة التشدد فى مواجهة إسرائيل، فأخذت تضيق الخناق على النشاط اليهودى فى مصر، وتساعد العمليات الفدائية ضد إسرائيل، وتفرض حصاراً فى قناة السويس على السفن القادمة أو الذاهبة إلى إسرائيل.

وفى الوقت نفسه بدأت تطورات على المسرح الدولى تزيد الإسرائيليين قلقاً؛ فبعد أن أطاح البكباشى جمال عبدالناصر باللواء نجيب فى شتاء ١٩٥٤ بدأت الحكومتان الأمريكية والبريطانية تتوددان إلى مصر، فوافقت بريطانيا على سحب قواتها من قناة السويس، ومعنى هذا أن الحصار المفروض على الملاحة الإسرائيلية فى القناة سيكون حصاراً كاملاً لا يقبل التحدى، كما وافقت الحكومة البريطانية على تزويد السلاح الجوى بطائرات جديدة، أما فى الولايات المتحدة فقد كان «جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الأمريكى يحث الرئيس أيزنهاور على انتهاج سياسة موالية للعرب، وقام دالاس شخصياً بزيارة القاهرة والاجتماع بقادة الثورة المصرية.

كان يرأس المخابرات العسكرية الإسرائيلية فى ذلك الوقت - وهى غير المخابرات العامة أو الموساد - ضابط يدعى الكولونيل «بنيامين جلبى» الذى اقتنع بأن التطورات الجديدة فى علاقات مصر مع الدول الغربية تعرض إسرائيل لخطر داهم، ورأى أن أسلوب التجسس والتخابر الهادىء لم يجد فى مواجهة هذا الخطر، وقرر أن يتخذ إجراء مباشرا لمواجهة هذا الوضع الجديد.

كانت خطته بسيطة وقاسية وتفتقر تماما إلى الشرعية.. أن يستغل رجال الموساد فى مصر فى عمليات تدمير للمنشآت الأمريكية والبريطانية فى القاهرة والإسكندرية.. وبالطبع سوف تنسب هذه العمليات إلى الشيوعيين أو الإخوان المسلمين، ومن ثم يتولد فى كل من واشنطن ولندن شعور مناهض للمصريين.

وأسر إلى كل من «موردخاى بن زور» وعميل آخر يدعى «بول فرانك» وهما ضابطان سابقان فى قوة الدفاع الإسرائيلية ـ القيام بهذه العملية، وكان فرانك يعمل فى مصر متخفياً فى شخصية ضابط سابق فى قوات العاصفة النازية، وقد مثل هذا الدور بنجاح لدرجة أنه كون صداقات وطيدة مع بعض كبار المصريين ومنهم قائد البحرية ووزير الداخلية، كما استطاع أن يكسب ثقة النازيين السابقين الذين يعيشون فى مصر ويعملون كمستشارين للحكومة المصرية، ولكن عندما أخبر فرانك أعضاء فريقه من اليهود المصريين الشبان عن المهمة المكلف بها، واجه فى بادىء الأمر معارضة شديدة من جانبهم، فقد كانوا يهوداً ومصريين فى الوقت نفسه، وكانت فكرة قتل أبناء بلدهم بلا تمييز تثير غضبهم كما كانوا يخشون أن تكون لهذه العملية ردود فعل سياسية فى إسرائيل.

غير أن الكولونيل بنيامين جلبى فى مكتبه بتل أبيب لم يتزحزح عن موقفه، وصمم على تنفيذ خطته، وأمام هذه الأوامر الحازمة لم يجد أعضاء الشبكة بداً من تنفيذ العملية، فبدأ عدد من الشبان والشابات اليهود يزرعون القنابل والألغام فى عديد من المنشآت، ومنها مكتبتا هيئة الاستعلامات الأمريكية فى القاهرة والإسكندرية، وعدة مطاعم فى وسط المدينتين، كما انفجرت عدة طرود ناسفة فى مكتب البريد العام كانت فى طريقها إلى ضحاياها عن طريق البريد ـ وأحدثت هذه الانفجارات حالة من الذعر العام فى مصر، علاوة على ما سببته من قلق بالغ لدى الحكومة المصرية.

ولكن العملية التخريبية لم تكن متقنة بما فيه الكفاية، وسواء أكان ذلك بسبب عدم اقتناع الشبان اليهود بشرعية العملية أم عدم وجود خبرة كافية لديهم فى أعمال التخريب فقد ارتكب هذا الفريق من اليهود المصريين خطأ أدى إلى سقوطها.

السقوط الكبير:

هى واحدة من أكبر سقطات الموساد، أحداثها تدور كما فى رواية بوليسية من الدرجة الثالثة.

الزمان: الساعة السابعة فى مساء يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٤م.

المكان: مدينة الإسكندرية.

كان ضابط البوليس المصرى «زكى المناوى» فى دوريته المعتادة حين سمع صرخة ورأى شاباً يندفع من مدخل سينما «ريو» إلى الخلاء، وقد شبت النار فى سترته، حاول الشاب إطفاء النيران دون جدوى، فما كان من الضابط إلا أن رمى بنفسه فوق الشاب وظل يمرغه بالتراب إلى أن انطفأت النار نهائياً.

سار كل شىء على ما يرام، وكانت الحروق فى جسم الشاب بسيطة، وساعده الضابط ليقف ويرتب ملابسه وشكله، ولكن، بينما كان الضابط يناوله «جراب» نظارته الذى وقع من السترة، نصف المحترقة، وقع على الأرض وانتشر منه مسحوق أسود اللون، ودهش رجل البوليس لحظة، ثم انحنى وشم المسحوق، وكان «مسحوق الفوسفات».

فكر الضابط بسرعة، فهناك مجموعة مجهولة من مشعلى الحرائق أثارت الرعب فى المدن المصرية منذ أسابيع، وكثيراً ما كان سبب الحرائق هو: «الفوسفات» وكانت العمليات تشكل لغزاً أمام البوليس المصرى: فقد تشتعل قنبلة فى صندوق بريد، أو يشتعل حريق فى دار سينما أو فى مكتبة عامة، وتوصل البوليس إلى أن الجرائم كلها ليست موجهة إلى أفراد معينين، وإنما يقصد بها «أشياء» معينة، وهذه «الأشياء» موجودة دائماً فى الممتلكات الأمريكية أو البريطانية، ولذلك كان أغلب ظن البوليس أن مشعلى الحرائق إما شيوعيون أو من الإخوان المسلمين.. وكانت سينما ريو من أملاك رجل أمريكى ولذلك فقد ثارت الشكوك فى نفس الضابط المصرى، حين حاول الشاب أن ينفض التراب عن ملابسه متعللاً بأنه فى حالة حسنة، وأنه لم يفقد شيئاً، وقال بسرعة، إن والده طبيب وسيعالج حروقه، لكن الضابط لم يتركه، بل ذهب إلى أقرب قسم للشرطة.

وسرعان ما اتضح أن الضابط قد عثر على عملية كبيرة، فالشاب الذى حاول إشعال النار فى السينما يدعى «فيليب ناتانسون» وهو مولود فى

الإسكندرية من أبوين يهوديين ثريين من فيينا، وعمره لا يتجاوز التسعة عشر عاماً، ويتبع «منظمة الشبيبة الصهيونية» وأثناء تفتيش منزله عثر البوليس على رسائل وصور، واعترف الشاب بأنه ينتمى إلى «جماعة تخريبية» وأنه مكلف بإشعال النار فى سينما «ريو» ولكن النار سبقته.. وتحت الضرب، اعترف الشاب بأكثر من ذلك اعترف بأنه ينتمى إلى جماعة عملاء إسرائيليين، تتلقى أوامرها من المقر الرئيسى فى تل أبيب ومهمتها: القيام بعمليات «إرهابية»!

وفى ليلة ٢٣ يوليو صدر الأمر بإلقاء القبض على هذه الجماعة فى مصر، بتعاون البوليس فى القاهرة والإسكندرية.. وتم القبض فعلاً فى الساعة الرابعة صباحاً على «فيكتور ليفى» و«روبرت داسا» وحتى أول أغسطس كان أحد عشر عضواً فى المنظمة قد وقعوا فى أيدى البوليس المصرى.

وفى ١١ ديسمبر عام ١٩٥٤ بدأت محاكمة الجواسيس، وفى اليوم التالى وصف رئيس الوزراء الإسرائيلى «موشى شاريت» المحاكمة بأنها «مسرحية هزلية» وهى «ستار دنىء قذر لإجلاء اليهود عن مصر»!

وكان «شاريت» غاضبا بحق، فقد كان يعتقد أن المصريين قاموا بتزوير الأدلة التى تدين المتهمين اليهود.. لكن رئيس الحكومة الإسرائيلية لم يكن يعلم أن المخابرات الإسرائيلية أرادت نشر الإرهاب فى مصر، وبكلمة أدق.. إن قسما من المخابرات وهو «أمان» أو المخابرات العسكرية هى التى قامت بذلك، وحتى رئيس الموساد نفسه «عيزر هاريل» لم يكن يعلم عن نشاط «أمان» المستقل شيئا واتسع نطاق العملية ليصبح «فضيحة» مازالت تصم إسرائيل حتى الآن!

فهى ليست مجرد عملية شاملة فاشلة، كما يحدث لكل أجهزة المخابرات فى العالم.. وليست خطأ فى التنفيذ، بحيث يمكن للمرء بعده أن يتابع نظامه اليومى المعتاد، بل هى كارثة قومية.. وقد كتب أحد الصحفيين الإسرائيليين مرة بأنها «خطيئة متوارثة» قامت بها الدولة اليهودية حين نشرت عمليات الإرهاب فى مصر، وقال «إن إسرائيل فقدت بها براءتها إلى الأبد» وأدرك السياسيون فى إسرائيل، إلى أين يمكن أن يدفع جهاز المخابرات السرية، الدولة، إذا لم تحكم عليه الرقابة!

اعترافات «روبرت داسا»:

اعترف «روبرت داسا» الجاسوس السابق والذى مكث أربعة عشر عاما فى السجون المصرية بأنها «كانت فكرة مجنونة ولكننا صدقناها»!

يعيش روبرت داسا حاليا بضاحية «بتاح تكفاه» بتل أبيب.. يحتفظ بألبومين للصور عن حياته بالإسكندرية ومع زملائه فى المدرسة وفى السجن، وخلال تدريبه على لعبة كرة السلة بسجن «طره» بالقاهرة.. وحاليا يكتب الأخبار باللغة العربية فى التليفزيون الإسرائيلى..

ولد «روبرت داسا» عام ١٩٣٢ فى الإسكندرية. وكان الابن الثالث (بين خمسة أبناء) لأب تاجر فى المدينة، وكان والده قد ولد أيضا فى الإسكندرية، حيث هاجرت أسرته من اليمن إلى فلسطين، واستوطنت فى مصر، أما والدته فقد ولدت فى القدس وأتت إلى الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الأولى.. وكان والداه يملكان دكانا صغيرا للخردوات فى الحى القديم فى المدينة.

كبر «روبرت» فى بلد عربى وتعلم اللغة العربية، لكن معظم زملائه المقربين إليه كانوا أولاد يهود.. وكان عدد اليهود فى «الحى اليهودى» فى الإسكندرية يصل إلى حوالى ٨٠ ألف يهودى، وكان ذلك فى الأربعينيات، وكان يسمح لهذه الأقلية بكل شىء.. فكان اليهود يبنون أديرتهم ويقيمون طقوسهم فيها، وكان يسمح لهم باللقاء فى نواديهم وكان المصريون يتكلمون عن هؤلاء الأغراب فى بلادهم بشئ من الاحترام، وكانوا يلقبونهم «بالخواجات»!

لكن هؤلاء «الخواجات» كان لهم أحلامهم، وهى إسرائيل، دولة يهودية ولو أن معظمهم لم يكن يتوقع تحقيق هذه الأحلام.. وحين كان «روبرت» فى مدرسة صهيونية تابعة لحبر الأحبار فى الإسكندرية، كان يعود إلى البيت وهو يتحدث بإعجاب شديد عن قرب نشوء دولة اليهود، لكن والديه كانا يسخران منه، بل كانا يمنعانه من الاشتراك فى اجتماعات الصبية اليهودية الدورية «الصهيونية» لكن الصبى كان متحمسا للصهيونية بشدة، وأصبح عضوا فى منظمة «الشبيبة الصهيونية» عام ١٩٤٧ ولم تكن قد حظر نشاطها فى مصر بعد.. وكان هناك خط سكك حديدية بين مصر وبين فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطانى، فكان المصريون يقضون الصيف فى

القدس، بينما يقضى يهود القدس إجازاتهم فى الإسكندرية، وكانت التجارة متبادلة!

لكن هذا الوضع تغير، بعد أن أعلنت دولة إسرائيل فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨، واعتبر العرب ذلك تحديا وبدأت الحرب.. وفى اليوم نفسه انتشر البوليس المصرى فى كل مدن مصر الكبيرة، وألقوا القبض على من يقوم بنشاط سياسى من الصهاينة، بما فيهم الشبيبة.. أمثال روبرت داسا.

وأطلق سراح «داسا» بعد أيام قليلة وعمل فى إحدى شركات الاستيراد والتصدير التى يمكلها أحد اليهود.. وكان «داسا» يقوم بكتابة مكاتبات الشركة باللغة العربية.

ولم يهمل «داسا» لقاءاته مع أصدقائه فى «منظمة الشبيبة» المحظورة فكان عليهم أن يلتقوا سرا.. ولكنهم لم يكونوا خائفين، لأن المصريين لم يعاملوهم بسوء حتى بعد أن خسروا الحرب ضد إسرائيل.

ولم يتغير الوضع كثيرا بعد قيام الثورة فى عام ١٩٥٢ ضد الملك فاروق.. وكان محمد نجيب أقوى رجل فى البلاد، قبل أن يتسلم منه جمال عبد الناصر السلطة.. فقد زار أحد المعابد اليهودية علنا حتى لا يتهم بعدائه لليهود!

فى عام ١٩٥٢ التقى «داسا» بـ «دارلنج» وفحص «دارلنج» مبادئ وحوافز داسا الصهيونية ساعات طويلة وسأله عن حياته بالتفصيل، ثم عرفه بنفسه.. فهو «عميل إسرائيلى مجند» وكلف دارلنج داسا بأن يكون «خلية» مع باقى زملائه ولم يكن هناك «مخطط مرسوم» أو حتى مخطط واضح بعد ليبين متى يقوم هؤلاء بأعمالهم الإرهابية.

وكون «داسا» الخلية التى لم يكن فيها إلا شباب مثله، لا يعرفون عن مهمة المخابرات السرية إلا تحمسهم الشديد لإسرائيل وأعجب داسا «بلعبة التجسس» التى يمارسها وكان يرتب اللقاءات السرية على خريطة المدينة، وينظم «الاجتماعات المهمة».

فى عام ١٩٥٣واجهت دولة إسرائيل أول وأعنف أزمة مرت بها، حين انسحب رئيس الوزراء الذى يعتبر «أبا للدولة» وأكبر الشخصيات السياسية

الإسرائيلية مكانة.. وهو دافيد بن جوريون، من الحياة السياسية، بعد أن مل الدسائس فى حزبه، والصراعات الجانبية والإهانات الشخصية!

أراد «بن جوريون» الابتعاد لمدة عامين أو ثلاثة أعوام عن هذا «العمل الكريه» وذهب إلى «المزرعة الجماعية».. «سدى بوكر» فى صحراء النقب ليزرع الطماطم كما قال! ولكنه قبل أن ينصرف إلى الزراعة كلية، استخدم كل إمكانياته السياسية وتجربته وعين عددا من المسئولين فى مواقع سياسية مهمة.

فقد عين «بنحاس لافون» وزيرا للدفاع، و«شيمون بيريز» مديرا عاما لوزارة الدفاع، و«موشى ديان» قائدا أعلى للجيش، و«عيزر هاريل» رئيسا للموساد ورغم أنه كان من المتوقع أن يكون «ليفى أشكول» رئيسا للوزارة.. فإن «موشى شاريت» هو الذى تولى المنصب وهو معروف بانحيازه للتفاهم مع العرب!

لكن هذه «النخبة» السياسية - كما تخيلها «بن جوريون» العجوز لم تصمد طويلا فقد أصبحت المزرعة ملاذا لكل الوزراء، الذين كان منهم من يتملق الرئيس السابق، أو من ينشد عنده النصيحة!

وكان «ديان» و«بيريز» يشتكيان طوال الوقت من «لافون» الذى لا يتمتع بحب من يعمل معه، لأنه ينادى دائما بالتفاهم مع العرب، ولا يوافق على المهمات العسكرية الكبيرة بينما يشتكى «هاريل» من أن «أمان» فرع المخابرات العسكرية لا يريد أن يأتمر بأوامر «هاريل» بل يقوم بأعمال عسكرية على مسئوليته الشخصية.

وذكر «عيزر هاريل» اسم الرجل الذى يسبب له كل هذه الصعوبات، وهو «بنجامين جيبلى» وكان «جيبلى» فى أول حياته ضابطا طموحا وقد بدأ التجسس لحساب «شاى» وهو فى الخامسة والعشرين من عمره.

وكانت «شاى» منبثقة عن المخابرات السرية للجيش اليهودى السرى «هاجاناه» فى فلسطين المحتلة.. وفى عام ١٩٤٨ أصبح حاكما لمدينة الورس، وكان أحد القضاة الذين حاكموا ضابط المخابرات «مائير توبيانسكى» وأعدمه ظلما.

وفى عام ١٩٤٩ أصبح نائبا لرئيس «أمان» ثم سافر إلى إنجلترا وأمريكا ليتابع تدريبه وتعليمه.. وبعد عودته أصبح رئيسا للمخابرات العسكرية وقرر أن يصبح قائدا للجيش ليحارب عدوه الأكبر مصر..!

وأثناء فترة رئاسته «لأمان» حاول بكل الطرق تكثيف حملته العدائية لمصر وحين كلف «بن جوريون» عام ١٩٥٢ «عيزر هاريل» برئاسة كل أجهزة المخابرات كان هذا ضربة قاضية «لجيبلى» فهو لن يرضخ لأوامر «هاريل».. وخطط «جيبلى» لتكوين ما يشبه (الوحدة ١٣١) التى قادت حرب الإرهاب ضد الفلسطينيين وقامت بالأعمال التخريبية فى مصر.

وأرسل «إبراهام دار» إلى القاهرة، وهو رجل مخابرات متمرس، تحت اسم «دارلنج» كما جاء فى جواز سفره البريطانى المزور، حيث كون فى القاهرة خليتى مخابرات سريتين.

وكان يرأس إحدى الخليتين طبيب تونسى يهودى هو «د. موشى مرزوق» ويعمل جراحا فى «المستشفى الإسرائيلى» فى القاهرة وكان يرأس الخلية الثانية فى الإسكندرية المدرس «سامى عازار» وكانت «فيكتورين نينيو» وتسمى «مارسيل» هى التى تقوم بالاتصال بين الخليتين، وهى فتاة رياضية جميلة، وهى أيضا ابنة عائلة كبيرة فى القاهرة، طويلة، شعرها قصير، تتمتع بأنوثة طاغية حتى أطلقت عليها الصحافة المصرية «إنجريد برجمان الصهيونية»! نظرا للشبه الملحوظ بينهما، ووصفت أيضا بلقب «ماتاهارى اليهودية» وقد ارتبطت بصداقات مع بعض الضباط المصريين فى أندية هليوليدو والجزيرة!

كان على العملاء الإسرائيليين، الذين لا يعملون لحساب الموساد، ولكن لحساب «أمان» أن يتجسسوا على الجيش المصرى.. لكن العملاء- الهواة- كانوا كثيراً ما ينسون أوراقاً مهمة وصوراً ومواد أخرى فى المقاهى العامة أو فى أماكن انتظار السيارات، ويتواعدون على اللقاء فى أماكن لا تصلح أصلا لاجتماعات على هذا المستوى من السرية.. وكانت المعلومات التى توردها الخليتان «لأمان» لا تمثل أى أهمية.

ولكن «جيبلى» رئيس «أمان» لم ييأس وأرسل فى طلب خمسة من العملاء إلى إسرائيل عن طريق باريس، لتدريبهم تدريباً خاصاً.. وفى بيت صغير فى يافا دربت العميلة «راشيل» العملاء، على التعامل مع المتفجرات، والكتابة

بالحبر السرى، واستعمال الشفرة، وفك رموزها، واستخدام جهاز الإرسال الصغير، واستعمال الكاميرات الصغيرة، وقد تدرب «روبرت داسا» فى يافا، وتخصص فى صنع القنبلة اليدوية والإرسال.

وقد جهزت «راشيل» العملاء الخمسة بأجهزة إذاعة وشفرة سرية ومواد متفجرة، وأرسلتهم إلى مصر.

ذو الملامح الأوروبية:-

كان زميلاً لـ «دارلنج» فى الحرب، ويعيش منذ بضعة أشهر فى مصر وهو «إفرى إيلاد» إسرائيلى، عيناه زرقاوان وشعره أصفر أشقر، وهو ابن رجل نمساوى اشتراكى، هرب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة وهاجر إلى فلسطين، وشارك فى الحركة السرية هناك، وكان يقود عمليات التخريب التى تقوم بها «هاجاناه»، وبعد تشكيل الدولة اليهودية أصبح ضابطاً ثم مديرا لمدرسة مدفعية إسرائيلية، ورغم ذلك فهو لم يكن يحب الجيش، فتركه عام ١٩٥٠ وعمل فى إحدى مصانع السيارات، وفى عام ١٩٥٢ انضم إلى «أمان» حيث رحبوا به بسبب شكله الأوربى الذى لن يلفت النظر إذا ما أرسلوه إلى البلاد الأوربية.

فى عام ١٩٥٣ سافر إلى ألمانيا فى مهمة خاصة وهناك وجد بيانات شخصية فى ملفات الجيش الألمانى لضابط برتبة رائد، كان هذا الرائد واسمه «بول فرانك» قد مات فى إحدى العمليات فى فلسطين عام ١٩٤٢ وقرر إيلاد أن يستمر فى دور المتوفى!

استطاع «إيلاد» الحصول على شهادة وجواز سفر باسم فرانك، وعلى شهادة تعميد مسيحية، وتم ذلك بفضل الاتصالات الإسرائيلية الحسنة بالسلطات الألمانية، كما ساعدت وظيفته الجديدة فى إحدى الشركات الألمانية على إكمال تنكره، وساعدته الظروف أكثر، حين تعرف على سفير ألمانيا فى مصر، على السفينة التى استقلها من جنوا إلى الإسكندرية، ودعاه إلى حفلة كوكتيل تقيمها السفارة، كان هذا بداية مسيرته الناجحة فى المجتمع الراقى المصرى.

وفى ٢٥ مايو عام ١٩٥٤ تلقى «فرانك- إيلاد» برقية عاجلة من المركز الرئيسى للموساد، أبلغوه فيها أن عليه أن يتواجد فى باريس فى اليوم التالى،

وفى مقهى «سان جيرمان» أبلغه رسول «جيبلى» أوامر القيادة، وهى تقضى بأن «يتسلم» إيلاد خلايا «أمان» الموجودة فى القاهرة والإسكندرية وأن يبحث عن أهداف لتخريبها، أما باقى التفاصيل والتعليمات، فسيتلقاها «إيلاد» من خلال برنامج المرأه اليوم «لربة البيت» الذى يذاع من الإذاعة الإسرائيلية!

لم يتحمس «إيلاد» لفكرة رئيسه، فهو يفضل أن يعمل بمفرده ولا يرحب بالعمل المشترك، وهو يريد أن يطارد النازيين، لا أن يقوم بأعمال إرهابية لا يرى فيها أى معنى أو جدوى، ولكنه رضخ للأمر فى النهاية دون أن يعلم أن «عملية سوزانا» لم يوافق عليها رئيس الموساد ولا القيادة السياسية فى الدولة.

فى يوم ٣١ يونيه بدأ «إيلاد» اتصالاته بالجواسيس الإسرائيليين فى القاهرة والإسكندرية.. وأبلغهم بخطة «أمان» واعترى القلق الكثيرين منهم لكن «فرانك- إيلاد» لفت نظرهم إلى أنهم مثل أى جندى أسرائيلى يتلقى الأوامر من القيادة، وعليه أن ينفذها ولذلك بدأوا يخططون لعمليات التخريب القادمة.

قال روبرت داسا فى اعترافاته: «إن الساعات الأولى كانت أسوأ ما مر عليه» فقد كانت هى الصدمة الأولى، التى أدرك معها أن كل شىء قد انتهى ثم ترامى إليه نبأ القبض على والديه أيضاً، ثم ضرب رجال البوليس له، ليعترف...

واستطاع أن يتحمل ويصمد نصف ساعة، ثم ساعتين، ثم أربع ساعات.. وظل يردد قصته، أنه قابل فتاة وأخذها معه إلى السينما، ولايعرف أى شىء عن أى شىء، وعندما اشتد الضرب ووقع من على كرسيه، سأل رجال البوليس زميله فيكتور بعد ذلك، هل «روبرت داسا» إنسان أم حيوان فالإنسان لا يمكن أن يتحمل الضرب!

وقال «داسا» فى اعترافاته: إن صمته لم يكن عملاً بطولياً بأى حال، ولكنه الخوف؛ فلم يكن يعرف بمَ يجيب المحققين الذين يسألونه وقال: إنه قد ولد فى مصر وعاش فيها، فهل يمكن أن يعترف بأنه يخرب (بلاده) أم يقول لهم إن ولاءه خاص بدولة أخرى، دولة معادية هى إسرائيل وقال: إن أى شىء كان سيقوله، لم يكن ليثير إلا المتاعب ولهذا فقد ظل صامتاً.

فى الساعة الرابعة صباحاً زج البوليس «بروبرت داسا» فى إحدى الزنزانات المليئة بالسكارى.. وأقفلوا عليه الباب الحديدى فانتابه إحساس مرعب بأنهم عزلوه عن العالم كله، وتركوه مع روائح السكارى.. كانت ثيابه ممزقة ومليئة بالدم الذى كان يسيل من أنفه وأذنيه وخلع حذاءه و وضع رأسه عليه ونام!

فى اليوم التالى واجه البوليس «روبرت داسا» بأقوال زملائه «فاعترف»، بما اعترف به زملاؤه- بأنهم خلية شيوعية سرية تعمل فى مصر، وتقوم بأعمال تخريبية، لكن هذه القصة لم تستمر طويلاً، ففى أول ديسمبر عام ١٩٥٤ بدأت محاكمة المصريين لهم، على مستوى عال من العناية والدقة، وكانت الأدلة ضد عملاء «أمان» أكثر مما يمكن إنكاره وقد استطاع المحققون الحصول عليها من العملاء أنفسهم وقد حدث أن الفتاة «مارسيل نينيو» التى كانت تقوم بالاتصال بين الشبكتين، حاولت أن تقفز مرتين من النافذة لتنتحر، لكنهم كانوا ينقذونها فى كل مرة!

ظلت مارسيل نينو بطلة الرياضة الأولمبية مختفية لفترة بفضل اتصالاتها الكثيرة وأصدقائها العديدين ولكنها وقد أصابها القلق لشعورها بتعقب رجال المباحث المصرية لها لجأت أخيراً إلى بيت «ماكس بنيث» صاحب محل الأطراف الصناعية والمسئول الأول الدائم عن عمليات المخابرات الإسرائيلية فى مصر، وقد كان أيضاً تحت مراقبة البوليس.. وعندما هاجم ضباط مكافحة الجاسوسية شقة بنيث ألقوا القبض عليه وهو يقوم بتجميع جهاز إرسال استعداداً لتبليغ رسالة إلى تل أبيب، وكانت مارسيل نينو تقف بجواره تساعده.

رشوة بنصف دجاجة مشوية:-

ولكن ماكس بنيث خلافاً لناثان قرر أن يظل صامتاً حتى النهاية، وخوفاً من أن ينهار تحت ضغط التعذيب على أيدى المصريين، استطاع أن يرشو أحد حراس السجن بنصف دجاجة مشوية بعثت بها إليه زوجته، وحصل منه على شفرة حلاقة جديدة بحجة استخدامها فى حلاقة ذقنه، ولكنه قطع بها شريان معصمه فمات فى الحال، وتمكن كل من إبراهام دار «جون دارلنج»

وبول فرانك من الهرب من مصر قبل أن يتم القبض عليهما، أما سائر أعضاء الخلية وعددهم ١١ شخصاً من الرجال والنساء فقد سقطوا فى يد البوليس المصرى، وجرى استجوابهم فى صيف عام ١٩٥٤م.

وفى النهاية انهار جميع أعضاء الشبكة نفسيا وجسديا واعترفوا بحقيقة نشاطهم، وأخبروا المصريين كيف قام رجال الموساد ورجال المخابرات العسكرية الإسرائيلية بتجنيدهم وتدريبهم، وكيف قاموا بالتجسس ضد وطنهم الأصلى مصر منذ أكثر من سنتين وأخيرا كيف بدأوا حملة الإرهاب والتخريب التى تم تخطيطها لتشويه سمعة مصر فى أعين الشعوب الغربية، وادعوا أنهم مصريون حقيقيون ولكنهم آلة صماء فى أيدى أسيادهم الإسرائيليين!

وقدم أعضاء الشبكة إلى المحاكمة، وصدر الحكم ضد فيليب ناثان وشاب آخر بالسجن المؤبد، كما حكم على مارسيل نينو وروبرت داسا بالسجن خمسة عشر عاما، أما بقية الأعضاء فقد حصلوا على أحكام مخففة، ولكن اثنين منهم، وهما صمويل عازر والدكتور موسى مرزوق، حكم عليهما بالإعدام شنقا، ونفذ فيهما الحكم فى العاشر من يناير عام ١٩٥٥م.

أما «إيلى كوهين» فقد استطاع بما لديه من دهاء وخبرة أن يقنع مستجوبيه بأنه يجهل تماما معرفته بوجود شبكة التجسس والتخريب، فما هو إلا مدير وكالة سياحة تعمل فى نطاق القانون، وأخيرا تم إطلاق سراحه، وكانت هذه فى الواقع أكبر مفاجأة فى القضية بالنسبة للعارفين ببواطن الأمور!

رفعت الجمال وإيلى كوهين:

فى مذكراته التى نشرت بصحيفة الأهرام فى ١٩٩٤/٣/٢٦ أشار البطل المصرى رفعت الجمال الشهير بـ«رأفت الهجان».. إلى دوره فى الكشف عن إيلى كوهين ومجموعته وكانت أولى المهام الناجحة لبطلنا قبيل سفره إلى إسرائيل فيقول: بدأت فترة تدريب مكثف، شرحوا لى أهداف الثورة وفروع علم الاقتصاد، وتعلمت سر نجاح الشركات المتعددة الجنسية وأساليب إخفاء الحقائق بالنسبة لمستحقات الضرائب ووسائل تهريب الأموال.. وتعلمت

بالإضافة إلى ذلك عادات اليهود وسلوكياتهم، وتلقيت دروسا مكثفة فى اللغة العبرية كما تعلمت تاريخ اليهود فى مصر وأصول ديانتهم وعرفت كيف أمايز بين اليهود الأشكناز والسفارد والشازيد وحفظت عن ظهر قلب الشعائر اليهودية وعطلاتهم الدينية وتدربت بعد هذا على جميع عادات الشرطة السرية للعمل بنجاح متخفيا، وأخيرا تقمصت شخصيتى الجديدة وأصبحت منذ ذلك التاريخ «جاك بيتون» المولود فى ٢٣ أغسطس عام ١٩١٩ فى المنصورة من أب فرنسى وأم إيطالية، وأن أسرتى تعيش الآن فى فرنسا بعد رحيلها من مصر، وهى أسرة كانت لها مكانتها وميسورة الحال، وديانتى هى يهودى أشكنازى وتسلمت وثائق تحمل اسمى الجديد والتواريخ الجديدة.

وخرجت إلى العالم بهذه الشخصية الجديدة ولكل ما تعلمته قصدت الإسكندرية مباشرة، كنت رسميًا فى الرابعة والثلاثين من العمر آنذاك وإن كنت أبدو أصغر سنا وتسلمت رقم تليفون، وتحدد لى موعد للاتصال عن طريقه، والإفادة بما لدى من معلومات.

وعثرت فى الإسكندرية على شقة صغيرة جميلة فى حى من المدينة يكثر به اليهود وحصلت على وظيفة كاتب فى إحدى شركات التأمين ورويدا رويدا تزايدت ثقتى بنفسى وزايلتنى مخاوفى وبدأت أقتنع بأننى يهودى.. وبعد فترة قصيرة قابلت ليفى سلامة الذى زاملته فى زنزانة السجن وقتما كنت نزيلا به فى فترة سابقة باسم دافيد أرونسون، حيانى كصديق قديم واصطحبنى ليقدمنى إلى أصدقائه، وعلى الرغم من حذرى إلا أننى كنت على يقين من أنه صدقنى وسلم بأن هذه هى حقيقتى، وبذا كان مفتاحى إلى قلب الطائفة اليهودية وحيث إننى لم أكن قد قلت اسمى قبل ذلك فلم أجد مشكلة فى تقديم نفسى له باسم جاك بيتون.. وبعد ثلاثة أيام من لقائنا قابلنى بعد انتهاء العمل وقدمنى إلى امرأة شابة تدعى «مارسيل نينو» وكان واضحا فى ضوء ما تعلمته فى السابق أن القصد من اللقاء هو أن تتفحصنى بدقة نيابة عن ليفى سلامة وأصدقائه، حيث إننى كنت أعرف الهدف جيدا من اللقاء فقد اجتهدت وسارت الأمور على ما يرام، كانت مارسيل امرأة جذابة ومن ثم لعبت عليها وبدأت علاقة معها.. جذبت كل الخيوط التى أعرفها وسرعان ما كسبتها إلى صفى وقدمتنى لرجل كان يعمل لحساب نفس المجموعة.. كان

اسمه «إيلى كوهين» أبواه من سوريا ولذا كان يتحدث العربية بلكنة سورية وهو يهودى وعضو له مكانته وسط الطائفة اليهودية فى المدينة أصبحنا صديقين وبدأنا نقضى معا وقتا طويلا وكان سلامة قريبا منا أيضا، وذات يوم قلت له إننى أريد إخراج مبلغ كبير من أموال الأسرة إلى خارج البلاد.. وثبت صواب شكوكى من أن سلامة متورط مع المسئولين المباشرين عن هذا.. إذا تلقف الكرة على الفور وأتانى بعروض عديدة رفضتها جميعًا بحجة أنها غير جادة وبالطبع كنت أبلغ الضابط المسئول «حسن حسنى» بانتظام بكل ما أتوصل إليه من معلومات، حاولت أن أتعقب سلامة لأكتشف قنوات نشاطه وأسلوب عملها، جاهد للتمويه على، غير أننى فى النهاية ظفرت به وعرفت أن التنظيم يرأسه رجل أعمال إنجليزى من سويسرا، اسمه جون دارلنج وتلقيت من «حسن حسنى» مبلغا كبيرا من المال لأسلمه إلى «سلامة»، نجحت الخطة ووضع حسنى سلامة تحت المراقبة، وتم القبض على كل المنظمة متلبسة فى مصر، ولم يكتشف أحد أمرى وقمت بدور الضحية، إذ بدوت فى صورة شاب خسر ثروته وأصبحنا صديقين بمرور الوقت، ووثق بى كوهين وائتمننى على الكثير من أسراره!

اكتشفت أنه نشيط جدا فى مناهضة البريطانيين وأنه يساعد اليهود على الهجرة من مصر إلى إسرائيل.. وعرفت أنه عضو نشيط لحساب مجموعة «العالياه بيت» المسئولة عن تنظيم عمليات الهجرة إلى إسرائيل.

وخلال هذه الفترة كانت المخابرات العسكرية السرية الإسرائيلية «أمان» قد بدأت تنشط داخل مصر، وكان الكولونيل «إفراهام دار» على رأس الوحدة الخاصة التى أنشأتها فى مصر للشروع فى سلسلة من الأعمال التخريبية ضد المؤسسات الأجنبية لتبدو الأحداث فى صورة أعمال إرهابية يرتكبها الوطنيون المصريون وتم تجنيد «إيلى» ضمن هذه المجموعة وبناء على أوامر من «حسن حسنى» عمدت إلى إقناع كوهين بضمى إلى هذه المجموعة أيضا وهكذا أصبح دورى الآن أشد خطرا بكثير من السابق، فهأنذا الآن أتعامل مع قضايا عسكرية وليس مع مواطنين عاديين يقترفون جريمة ما، ثم إن المجموعة التى كنت أتابع حينذاك نشاطها متخفيا لم تكن تتورع عن قتل عدوها، لا أدرى ما الذى حفزنى إلى ذلك، غير أننى كنت

مقتنعا تماما بأن أعمل كل ما فى وسعى لكى أساعد بلدى وحضر حسن حسنى بنفسه إلى الإسكندرية لكى يسمع منى معلوماتى، وما ان وصلت إلى النقطة الخاصة باجتماعنا السرى حتى وجدته بصحبة رجل آخر.. عرَّف كلا منا بالآخر كان هذا الرجل هو «على غالى» المسئول فى مصر عن نشاط الجاسوسية والجاسوسية المضادة، وحيث إن مهمتى الآن أصبح لها طابع دولى فقد أصبح غالى مسئولا عنى، إذ كان حسن حسنى مسئولا فقط عن القضايا الداخلية.. شكرنى حسنى على جهودى حتى الآن وتركنى مع على غالى وحدنا.. قال لى غالى إنه فخور بجهدى حتى الآن ويريدنى أن أبقى على العهد وأكون عند حسن الظن وأخبرنى أن استعدادات تجرى لتوسيع نشاط جهاز المخابرات المصرى، وأضاف: إننى الآن أصبحت واحدا من عملائه ويتوقع منى أن استمر فى عملى مثلما كنت فى السابق، اختلط على الأمر وإن لم يهن عزمى وأيقنت أنى انزلقت إلى ميدان الجاسوسية.. لم أدرك الفارق وفى عام ١٩٥٣ كنت ضمن مجموعة كولونيل افراهام دار ومعى إيلى كوهين المعروفة باسم «الوحدة ١٣١»، وعندما أعدَّت هذه المجموعة عدتها للقيام بعمليات تخريب واسعة أبلغت غالى، وألقى القبض على ١٤ من أعضائها، ومنهم ماكس بينيت مندوب المخابرات العسكرية الإسرائيلية «أمان» وتم إعدام اثنين منهم.

بعد إطلاق سراح إيلى كوهين ذهب للإقامة فى الإسكندرية وواصل عمله كجاسوس مقطوع لإسرائيل، كان لايزال يمتلك جهاز إرسال أمدته به الشبكة السابقة قبل تدميرها وبواسطة هذا الجهاز، أخذ يرسل أى معلومات يستطيع جمعها ولو كانت بسيطة إلى تل أبيب.

ولكن إيلي كوهين استطاع أيضا أن يرسل بعض التطورات المثيرة ومنها النفوذ المتزايد للنازيين السابقين- الذين منحوا حق اللجوء فى مصر- داخل حكومة عبدالناصر.

كان نشاط كوهين لصالح الحركة الصهيونية لسنوات عديدة أكبر من أن يمر بلا اكتشاف خاصة فى هذه المرحلة التى احتدت فيها مشاعر المصريين ضد إسرائيل، ولكن مرة أخرى استطاع إيلى أن يخرج كالشعرة من العجين فقد استطاع أن يقنع مستجوبيه بأنه صهيونى بالعقيدة فقط، ولم يتمكن

المحققون من اكتشاف أى دليل يثبت نشاطه الصهيونى أو المعادى للبلاد، بيد أنهم أبلغوه أنه سيتم طرده من مصر!

وفى ٢ ديسمبر ١٩٥٦ وجد إيلى كوهين نفسه على ظهر سفينة لاجئين تابعة للصليب الأحمر الدولى أبحرت من الإسكندرية إلى نابولى، ومن هناك استقل مع عدد كبير من اللاجئين اليهود المجتمعين هناك إحدى الناقلات الإيطالية إلى ميناء حيفا.

أوراق من ملف إيلى كوهين:-

«إلياهو بن شاؤول كوهين».. من أصل سورى حلبى، ولد بالإسكندرية فى ١٦ ديسمبر عام ١٩٢٤، انضم إيلى كوهين إلى «منظمة الشباب اليهودى الصهيونى» بالإسكندرية عقب حرب ١٩٤٨ عمل تحت قيادة «إبراهام دار» فى مساعدة اليهود على الهجرة وتجنيد العملاء، فى عام ١٩٤٩ هاجر أبواه وأشقاؤه إلى إسرائيل، بينما بقى هو فى الإسكندرية، وفى عام ١٩٥٤ ألقى القبض على أفراد شبكة «فضيحة لافون».

عند التحقيق كان إيلى كوهين قد تمكن من إقناع المحققين ببراءة صفحته إلى أن خرج من مصر عام ١٩٥٥، حيث التحق هناك بالوحدة رقم ١٣١ بجهاز أمان لمخابرات جيش الدفاع الإسرائيلى ثم أعيد إلى مصر، ولكنه كان تحت عيون المخابرات المصرية التى لم تنس ماضيه فاعتقلته مع بدء العدوان الثلاثى ضد مصر فى أكتوبر ١٩٥٦م.

وبعد الافراج عنه هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٥٧، حيث استقر به المقام محاسبا فى بعض الشركات، وانقطعت صلته مع «أمان» لفترة من الوقت، ولكنها استؤنفت عندما طرد من عمله وعمل لفترة كمترجم فى وزارة الدفاع الإسرائيلية، ولما ضاق به الحال استقال وتزوج من يهودية من أصل مغربى عام ١٩٥٩م.

وقد رأت المخابرات الإسرائيلية فى إيلى كوهين مشروع جاسوس جيد فتم إعداده فى البداية لكى يعمل فى مصر، ولكن الخطة ما لبثت أن عدلت، ورؤى أن أنسب مجال لنشاطه التجسسى هو دمشق وبدأ الإعداد الدقيق لكى يقوم بدوره الجديد، ولم تكن هناك صعوبة فى تدريبه على التكلم باللهجة السورية لأنه كان يجيد العربية بحكم نشأته فى الإسكندرية.

ورتبت له المخابرات الإسرائيلية قصة ملفقة يبدو بها مسلما يحمل اسم «كامل أمين ثابت» هاجر وعائلته إلى الإسكندرية ثم سافر عمه إلى الأرجنتين عام ١٩٤٦ حيث لحق به كامل وعائلته عام ١٩٤٧ وفى عام ١٩٥٢ توفى والده فى الأرجنتين بالسكتة القلبية، كما توفيت والدته بعد ستة أشهر وبقى كامل وحده هناك يعمل فى تجارة الأقمشة!

وتم تدريبه على كيفية استخدام أجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكى والكتابة بالحبر السرى، كما راح يدرس فى الوقت نفسه كل أخبار سوريا ويحفظ أسماء رجالها السياسيين والبارزين فى عالم الاقتصاد والتجارة مع تعليمه أصول الآيات القرآنية وتعاليم الدين الإسلامى.

وفى ٣ فبراير ١٩٦١ غادر إيلى كوهين إسرائيل إلى زيورخ، ومنها حجز تذكرة سفر إلى العاصمة التشيلية سنتياجو باسم «كامل أمين ثابت» ولكنه تخلف فى بيونس إيرس حيث كانت هناك تسهيلات معدة سلفا لكى يدخل الأرجنتين بدون تدقيق فى شخصيته الجديدة.

وفى الأرجنتين استقبله عميل إسرائيلى يحمل اسم إبراهام، حيث نصحه بتعلم اللغة الإسبانية حتى لا يفتضح أمره، وبالفعل تعلم كوهين اللغة الإسبانية وكان إبراهام يمده بالمال ويطلعه على كل ما يجب أن يعرفه لكى ينجح فى مهمته.

وبمساعدة بعض العملاء تم تعيين كوهين فى شركة للنقل وظل لمدة تقترب من العام يبنى وجوده فى العاصمة الأرجنتينية كرجل أعمال سورى ناجح فكون لنفسه هوية لا يرقى إليها الشك واكتسب وضعا متميزا لدى الجالية العربية فى الأرجنتين، باعتباره قوميا سوريا شديد الحماس لوطنه وأصبح شخصية مرموقة فى كل ندوات العرب واحتفالاتهم، وسهل له ذلك إقامة صداقات وطيدة مع الدبلوماسيين السوريين وبالذات مع الملحق العسكرى بالسفارة السورية العقيد أمين حافظ!

وخلال المآدب الفاخرة التى اعتاد كوهين أو كامل أمين ثابت إقامتها فى كل مناسبة وغير مناسبة ليكون الدبلوماسيون السوريون على رأس الضيوف، لم يكن يخفى حنينه إلى الوطن الحبيب، ورغبته فى زيارة دمشق لذلك لم يكن غريبا أن يرحل إليها بعد أن وصلته الإشارة من المخابرات الإسرائيلية

ووصل إليها بالفعل فى يناير ١٩٦٣ حاملا معه آلات دقيقة للتجسس، ومزودا بعدد غير قليل من التوصيات الرسمية وغير الرسمية لأكبر عدد من الشخصيات المهمة فى سوريا، مع الإشارة بنوع خاص إلى الروح الوطنية العالية التى يتميز بها والتى تستحق أن يكون محل ترحيب واهتمام من المسئولين فى سوريا!

وبالطبع لم يفت كوهين أن يمر على تل أبيب قبل وصوله إلى دمشق، ولكن ذلك تطلب منه القيام بدورة واسعة بين عواصم أوروبا قبل أن ينزل فى مطار دمشق وسط هالة من الترحيب والاحتفال.. وأعلن الجاسوس أنه قرر تصفية كل أعماله العالقة فى الأرجنتين ليظل فى دمشق مدعيا الحب لوطن لم ينتم إليه يوماً!

وبعد أقل من شهرين من استقراره فى دمشق، تلقت أجهزة الاستقبال فى أمان أولى رسائله التجسسية التى لم تنقطع على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات بمعدل رسالتين على الأقل كل أسبوع.

وفى الشهور الأولى تمكن كوهين أو «كامل» من إقامة شبكة واسعة من العلاقات المهمة مع ضباط الجيش والمسئولين الحربيين، وكان من الأمور المعتادة أن يقوم بزيارة أصدقائه فى مقار عملهم، ولم يكن مستهجنا أن يتحدثوا معه بحرية عن تكتيكاتهم فى حالة نشوب الحرب مع إسرائيل، وأن يجيبوا بدقة على أى سؤال فنى يتعلق بطائرات الميج أو السوخوى أو الغواصات التى وصلت حديثا من الاتحاد السوفيتى أو الفرق بين الدبابة تى ٥٣ وتى ٥٤... إلخ من أمور كانت محل اهتمامه كجاسوس، وبالطبع كانت هذه المعلومات تصل أولا بأول إلى إسرائيل ومعها قوائم بأسماء وتحركات الضباط السوريين بين مختلف المواقع والوحدات!

وفى سبتمبر ١٩٦٣ صحبه أحد أصدقائه فى جولة داخل التحصينات الدفاعية بمرتفعات الجولان، وقد تمكن من تصوير جميع التحصينات بواسطة آلة التصوير الدقيقة المثبتة فى ساعة يده، وهى إحدى ثمار التعاون الوثيق بين المخابرات الإسرائيلية والأمريكية.

ومع أن صور هذه المواقع سبق أن تزودت بها إسرائيل عن طريق وسائل الاستطلاع الجوى الأمريكية، إلا أن مطابقتها على رسائل كوهين كانت لها

أهمية خاصة سواء من حيث تأكيد صحتها.. أو من حيث الثقة فى مدى قدرات الجاسوس الإسرائيلى!

وفى عام ١٩٦٤ عقب ضم جهاز أمان إلى الموساد زود كوهين قادته فى تل أبيب بتفصيلات وافية للخطط الدفاعية السورية فى منطقة القنيطرة وفى تقرير آخر أبلغهم بوصول صفقة دبابات روسية من طراز تى ٥٤ وأماكن توزيعها وكذلك تفاصيل الخطة السورية التى أعدت بمعرفة الخبراء الروس لاجتياح الجزء الشمالى من إسرائيل فى حالة نشوب الحرب.

وازداد نجاح إيلى كوهين خاصة مع إغداقه بالأموال على حزب البعث وتجمعت حوله السلطة واقترب من أن يرشح رئيسا للحزب أو للوزراء!

وهناك أكثر من رواية حول سقوط إيلى كوهين نجم المجتمع السورى لكن الرواية الأصح هى تلك التى يذكرها رفعت الجمال الجاسوس المصرى الشهير بنفسه.

«..شاهدته مرة فى سهرة عائلية حضرها مسئولون فى الموساد وعرفونى به أنه رجل أعمال إسرائيلى فى أمريكا ويغدق على إسرائيل بالتبرعات المالية.. ولم يكن هناك أى مجال للشك فى الصديق اليهودى الغنى، وكنت على علاقة صداقة مع طبيبة شابة من أصل مغربى اسمها «ليلى» وفى زيارة لها بمنزلها شاهدت صورة صديقنا اليهودى الغنى مع امرأة جميلة وطفلين فسألتها من هذا؟ قالت إنه إيلى كوهين زوج شقيقتى ناديا وهو باحث فى وزارة الدفاع وموفد للعمل فى بعض السفارات الإسرائيلية فى الخارج فلم تغب المعلومة عن ذهنى، كما أنها لم تكن على قدر كبير من الأهمية العاجلة، وفى أكتوبر عام ١٩٦٤ كنت فى رحلة عمل للاتفاق على أفواج سياحية فى روما وفق تعليمات المخابرات المصرية وفى الشركة السياحية وجدت بعض المجلات والصحف ووقعت عيناى على صورة إيلى كوهين فقرأت المكتوب أسفل الصورة «الفريق أول على عامر والوفد المرافق له بصحبة القادة العسكريين فى سوريا والعضو القيادى لحزب البعث العربى الاشتراكى كامل أمين ثابت» وتذكرته جيدا وكان كامل هذا هو إيلى كوهين الذى عملت معه فى مصر وسهرنا معه فى إسرائيل وتجمعت الخيوط فى عقلى فحصلت على نسخة من هذه الجريدة اللبنانية من محل بيع الصحف بالفندق وفى المساء

التقيت مع «قلب الأسد» محمد نسيم رجل المهام الصعبة فى المخابرات المصرية وسألته هل يسمح لى أن أعمل خارج نطاق إسرائيل؟ فنظر لى بعيون ثاقبة.

- ماذا؟

- قلت: خارج إسرائيل

- قال: أوضح

- قلت: كامل أمين ثابت أحد قيادات حزب البعث السورى هو إيلى كوهين الإسرائيلى مزروع فى سوريا وأخشى أن يتولى هناك منصبا كبيرا.

- قال: ما هى أدلتك؟

- قلت: هذه الصورة ولقائى معه فى تل أبيب ثم إن صديقة لى اعترفت بأنه يعمل فى جيش الدفاع، ابتسم قلب الأسد وأوهمنى أنه يعرف هذه المعلومة فأصبت بإحباط شديد ثم اقترب من النافذة وعاد فجأة واقترب منى وقال..

- لو صدقت توقعاتك يا رفعت لسجلنا هذا باسمك ضمن الأعمال النادرة فى ملفات المخابرات المصرية.

وعقب هذا اللقاء طار رجال المخابرات المصرية شرقا وغربا للتأكد من المعلومة وفى مكتب مدير المخابرات فى ذلك الوقت السيد صلاح نصر تجمعت الحقائق وقابل مدير المخابرات الرئيس جمال عبد الناصر، ثم طار فى الليلة نفسها بطائرة خاصة إلى دمشق حاملا ملفا ضخما وخاصا إلى الرئيس السورى أمين الحافظ، وتم القبض على إيلى كوهين وسط دهشة الجميع وأعدم هناك فى ١٨ مايو ١٩٦٥.

من أوراق الموساد:-

يقع «الموساد» فى مبنى عادى فى شارع «الملك شاؤول» فى تل أبيب وتطلق عليه وسائل الإعلام الإسرائيلية اسم «عين داود الثاقبة» وتم تأسيس الموساد قبل إنشاء دولة إسرائيل بنصف قرن تقريبا، وجاء مواكبا للقرار الذى اتخذ فى مدينة «بازل» السويسرية خلال أغسطس ١٨٩٧ أثناء اجتماع المؤتمر

الصهيونى الأول برئاسة تيودور هرتزل.. ففى عام ١٩٠٧ أنشأ الحزب منظمة عسكرية من اليهود الأوروبيين تسمى (بارحبورا) ثم تأسست الوكالة اليهودية عام ١٩٢٣ بقرار من المؤتمر الصهيونى الثالث عشر، وهى الوكالة التى أخذت على عاتقها تنشيط هجرة اليهود من جميع أنحاء العالم إلى فلسطين بشتى الوسائل.

وفى عام ١٩٣٠ تم تشكيل منظمة الهاجانا (الدفاع) العسكرية شبه القانونية وكان هدفها المعلن هو الحفاظ على موطن اليهود القومى ثم دخلت تحت وصاية الوكالة اليهودية التى تشكلت بعدها بثلاث سنوات وشكلت الهاجانا فيما بعد قوام جهاز المخابرات الإسرائيلى الحالى (الموساد).

ومن خلال الهاجانا تكونت منظمة سرية خاصة سميت مكتب المعلومات (شيروت يهوديوت) عرفت باسم (شاى) وفى عام ١٩٣٧ أنشأت الهاجانا أيضاً منظمة (موساد لى البافى بيت) أى (مكتب الهجرة) واسمها الأول (موساد) هو الاسم الذى استعاره جهاز المخابرات الإسرائيلية عام ١٩٥١ ليكون اسمه حينما ظهر لأول مرة بشكل رسمى، كما ورث أيضاً شبكة جواسيسها.

ونظراً لتعدد تنظيمات التجسس الإسرائيلية رأت القيادة الصهيونية أن تنشىء جهازاً خاصاً لتنسيق أنشطتها سمى (شيروت إسرائيل) أو (فى خدمة إسرائيل) وقد تولى تأسيسه «روفين شيلوح» الذى رأس الموساد بعد تأسيسه رسمياً، وطبقاً لإحصائية نشرت عام ١٩٩٦ يبلغ عدد العاملين فى الموساد نحو ١٣٠٠ إلى ١٥٠٠ شخص من بينهم ٥٠٠ ضابط يعمل الواحد منهم حتى سن الثانية والخمسين ويحال بعدها للمعاش ويتقاضى ٧٠٪ من مرتبه وقتها.. وللموساد شبكة للعملاء تغطى أنحاء العالم تضم ٣٥ ألف شخص (٣٠ ألفاً يعملون والباقى فى حالة كمون مؤقت) ويتولى الموساد العديد من المهام منها: التجسس، الاغتيالات، الحصول على الأسلحة، التجسس المضاد، إثارة الفتن، الخطف... إلخ.

ويتكون الموساد من عدة أقسام رئيسية لكل منها دور أو مهمة خاصة بها وتتراوح مهام هذه الأقسام بين جمع المعلومات وتصنيفها ودراسة هذه المعلومات وتقييمها والمراقبة والتجسس والتجنيد وتنفيذ العمليات الخارجية

الخاصة من قتل وتصفية.. إلخ، إضافة إلى قسم خاص بالتصوير والتزوير والشفرة وأجهزة الاتصال، فضلاً على قسم خاص بالتدريب والتخطيط ورفع كفاءة العاملين بالجهاز.. كما يضم الموساد قسماً لمكافحة التجسس والاختراق ويعتبر قسم العمليات هو أكبر فروع الموساد ومهمته تنظيم نشاط وعمل الجواسيس المنتشرين حول العالم، وهناك أيضاً وحدة خارجية أخرى تسمى (عل) أى رفيعة المستوى وهى تقوم بجمع المعلومات عن جميع الدول العربية من داخل الولايات المتحدة الأمريكية بواسطة تعقب البعثات الدبلوماسية.

وثمة لجنة خاصة بالموساد تجتمع أسبوعياً يطلق عليها اختصاراً (وادات) وهى لجنة تختص بتنسيق السرية والتجسسية خارج وداخل إسرائيل، ورئيس (وادات) هو رئيس الموساد الذى يطلق عليه زملاؤه اسم (مأمون) أما أعضاء لجنة (وادات) فهم مدير جهاز المخابرات العسكرية (أجافى مودين) الذى يسمى (أمان) ومدير جهاز الأمن الداخلى الذى يسمى (شيروت بيتاخون كليالت) ويسمى اختصاراً (شين بيت) أو (شاباك) ومدير مركز الأبحاث الاستراتيجية والتخطيط بوزارة الخارجية المتخصص فى التجسس الدبلوماسى، ومعهم أيضاً مدير قسم العمليات الخاصة لإدارة الشرطة (ماتام) والمستشارون الشخصيون لرئيس الوزراء فى الشئون السياسية والعسكرية وشئون المخابرات ومكافحة الإرهاب، وخلال هذا الاجتماع الأسبوعى ترسم السياسة الأمنية لإسرائيل داخلياً وخارجياً.

كما يضم الموساد أيضاً شعبة أبحاث تشمل خمسة أقسام، و١٥ مكتباً لدراسات الدول العربية وبعض دول العالم الأخرى، وثمة اهتمام خاص فى الموساد بالدول العربية عامة وبدول الجوار بشكل خاص (مصر وسوريا ولبنان والأردن) ومعها السعودية والعراق والجزائر وليبيا وتونس.

وتعتبر مصر بالنسبة للموساد هى العدو الأول؛ لذا كثف نشاطه التجسسى ضدها لسببين:

الأول: جمع المعلومات فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، واستخدامها ضد مصر فى حالات السلم أو الحرب على حد سواء.

الثانى: زرع شبكات لها عن طريق تجنيد بعض المصريين سواء ممن

سافروا إلى إسرائيل أو الذين لم يسافروا إليها وفى حالة قيام حرب بين البلدين تكون لدى إسرائيل قاعدة كبيرة من الجواسيس جاهزة تماماً ومدربة بكفاءة عالية لإمدادها بما تريد من معلومات، وتشير التقارير إلى ضبط أكثر من ٥٣ شبكة تجسس إسرائيلية فى مصر خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، ويرأس الموساد حالياً الجنرال «مائير داجان».

لقد شهد الصراع العربى ـ الإسرائيلى حرباً شرسة رهيبة.. حربًا بدون بلاغات.. حرباً فى الظلام.. حرباً بلا رحمة.. حيث المحاربين منفردون وعزل من السلاح.. ولكنها حرب لا تخلو من الأبطال كما أنها لا تخلو من الضحايا .. وأعنى الحرب الخفية بين أجهزة الاستخبارات.. وكان «إيلى كوهين» واحداً من ضحايا هذه الحرب الخفية!

الجاسوس الساحر!

«إيلى كوهين» جالس دون حركة فى قفص الاتهام، وحيداً أمام القضاة، معتدل الظهر، منتصب العنق، ومن آن لآخر تهزه حركة عصبية، وفى وجهه الشاحب المتعب بقى نظره ثابتاً، وتبدأ الآن قضية طويلة، سفر طويل فى طريق الموت، وإيلى كوهين ينظر إلى القضاة دون أن يرمش.

ـ «ما اسمك؟» يسأله رئيس المحكمة.

ـ «اسمى إلياهو شاؤول كوهين، ولدت فى الإسكندرية..»

إيلى كوهين وحيد أمام القضاة، وحيد مع حقيقته، وحيد مع ماضيه، أصدقاؤه القدماء ـ المتهمون أيضاً ـ تجاهلوه فى محاولة لإنقاذ أنفسهم، القضاة الذين يحاكمونه ينتمون إلى بلد عدو، عائلته ورؤساؤه بعيدون، غير قادرين على مساعدته.

إيلى كوهين ليس إلا كبش الفداء لقضية أوسع، اليوم ـ ٢٨ فبراير سنة ١٩٦٥- يحاكم كضحية للفكر الإرهابى لزعماء دولة العصابات، لقد وقع فى قبضة المخابرات السورية التى حققت معه بقدر ما أمكنها، هذه الاجراءات، هذه المحاكمة ماهى إلا من باب المظاهر، لمجرد إعلام الجمهور وتحريك الشعور، الأجوبة التى سيدلى بها معروفة مسبقاً وكذلك الحكم الذى سيصدر.

– «من أنت؟ ماذا فعلت؟ لماذا؟ وكيف؟»

– «ولدت فى الإسكندرية بمصر فى ديسمبر١٩٢٤، اشتغلت محاسباً، وأنا الآن مستخدم فى إدارة المخابرات الاسرائيلية..»

أسئلة وأجوبة لاتعطى إلا صورة جافة لحياة إنسان، إن الذكرى وحدها هى التى يمكنها أن ترد الحياة لهذه البيانات المقتضبة من الاستجواب: «إيلى كوهين، من كنت؟»..

عادة فى دمشق يكون الطقس جميلاً فى الأيام الاخيرة من شهر يناير، السماء زرقاء ولكن زرقتها خفيفة لم تبلغ بعد زرقة الصيف العميقة، دمشق بلد حدائق، محاطة بالخضرة، هواؤها الصافى ملئ بالروائح العطرية، والشمس معلقة أمام هذه الستارة الزرقاء، حى أبو رمانة الراقى، مقر الدبلوماسيين وكبار البورجوازيين، هادئ فى الساعة الثامنة صباحا، إيلى كوهين قام من نومه، ويتمتع بالسكون.

لا يزال اسمه «كمال أمين ثابت» إنه يقطن فى شقة فسيحة مؤثثة بالأثاث الفاخر على الطريقة الشرقية التى يكثر فيها السجاجيد.

شئ غريب، إن هذا الرجل الغنى ليس عنده خدم.. «والله ياعزيزى، لابد أن هذه نزوة أعزب».. إن ثابتا يعيش عيشة جنونية ولذيذة. نفقاته كثيرة وأصدقاؤه أكثر!

ثابت جالس على السرير فى هذا السكون، أمامه آلة ضخمة لاسلكية للإرسال والاستقبال، يحرك فيها بعض الأزرار ويسجل باعتناء ما يبلغه فى السماعات.. فجأة تحدث ضجة كبيرة تفزعه، لقد كسر باب الشقة، ولم يكد يقوم من جلسته حتى احتضنه شرطى عملاق، لم تصدر منه أى حركة مقاومة، غير أنه أبدى اندهاشا : «مامعنى هذا؟ ما الذى جرى؟»، أمامه ضابط ينظر إليه بانتباه ودون كلمة، حركة خفيفة ترجف فى ركن شاربه، هى الإشارة الوحيدة لما يتصف به من حدة شديدة متوترة «ماذا يا مأمور؟ أهذا نوع من المزاح؟ إنى مغترب عائد محترم ولست مجرما»

لاجواب.. وفى أثناء قيام العملاق يجذب «كمال أمين ثابت» يلمح الضابط ورقة على المنضدة أمام السرير، الورقة بيضاء غير أنها تحمل جملة واحدة غير كاملة: «نريد معلومات تكميلية عن..» لم يعد لدى كمال أمين ثابت أى شك فيما ينتظره، فقد أسفر التفتيش الدقيق فى شقة هذا الأرجنتينى المزعوم العائد لبلده عن اكتشاف آلة لاسلكى أخرى مخبأة فى نجفة، وأفلام معدة للطبع، وحبر سحرى، ودفاتر شيكات على بنك سويسرى، وكمية من

أقراص سم السيانور، أى الجهاز الكامل للعميل السرى الممتاز، كيف يمكن الإنكار؟ إن الأدلة ساحقة، وهاهو إيلى كوهين يدخل فى طريق الاعترافات.

دارت إشاعات كثيرة عن تعذيبه عندما قبض عليه، لاشك أنه حاول أن يتكلم أقل ما يمكنه، وأن الطرق المعتادة فى البوليس والمخابرات لإجبار المتهم على الكلام قد استعملت معه، لاشك أنه قد ضرب وتم استجوابه طويلا بطريقة مؤلمة، ليس فى مقدور الإنسان أن يقسم بأنه سوف يبقى صامتا تحت التعذيب، ربما إيلى كوهين لم يعترف إلا بأقل قدر معقول، ربما يكون قد نجح فى التغرير بالسوريين إلى أن يتكفل اعدامه بإخفائه هو وأسراره، كان تكريم إسرائيل لجاسوسها بعد إعدامه يفوق التكريم الذى يؤدى عادة لمن يقدمون حياتهم للوطن، فهل كان ذلك شكراً وتقديراً لما تمكن إيلى كوهين من إخفائه وإنقاذه؟!

على أى حال ، إن إيلى كوهين ماثل أمام القضاة ثلاثة أسابيع بعد إلقاء القبض عليه، ثلاثة أسابيع مرت فى التنقلات المتتابعة بين ثكنات الحميدية، مقر القوات المدرعة بدمشق، ومبنى الأمن الوطنى والخدمات الخاصة، وكانت التحقيقات تستهدف مجموعتين من الأهداف: من ناحية الحصول على أوفى المعلومات عن تصرفاته وتدريبه وتكوين الجهاز السرى الإسرائيلى وأسماء شركائه المحتملين، ومن ناحية أخرى الحرص على أن يمتنع إيلى كوهين عن الإدلاء أمام المحكمة بأكثر مما يلزم حتى لا تفلت منه اعترافات خطيرة على بعض السوريين!

وهو يتذكر أن رؤساءه قد قالوا له يوماً فى إسرائيل: «فى حالة القبض المفاجىء، عليك أن تمثل الانهيار ولا تقاوم إلا شكلياً، باختصار اجعلهم يعتقدون أنك لم تعد تتحمل الآلام، احذر كذلك الإرهاق النفسانى، فإنه أقوى من التعذيب الجسمانى.

كان كمال أمين ثابت موجوداً فى دمشق منذ أربع سنوات، كان يتردد على كواليس السلطة وكان مسموعاً لدى أولى الأمر، كان ينظم استقبالات باهرة حافلة بمضيفات جويات وراقصات من الكباريهات وكلهن جميلات والكولونيل «صلاح الدالى» كان من أصدقائه ويشترك فى هذه المسرات!

الكولونيل صلاح الدالى هو رئيس المحكمة التى يمثل أمامها إيلى كوهين، واثنان من القضاة فى القضية الرنانة كانا أيضا من الذين يترددون على

صالون كمال ثابت، وكذلك وزراء، مثل «محمود جهر» المسئول عن الدفاع، و«عبد الكريم جندى» المسئول عن الإصلاح الزراعى، وكان هناك آخرون من أصدقاء ثابت موجودين فى صفوف المتهمين ومن بينهم ابن أخ رئيس أركان الحرب السورى!

أما إيلى كوهين فهو يتجاهل أصدقاء ثابت السابقين، الآن وقد ثبت أنه عميل إسرائيلى، فإنه ينطوى على نفسه. ولما سأله الكولونيل صالح الدالى إذا كان يعرف أى واحد من أعضاء المحكمة أو من الموجودين فى الجلسة، هز إيلى كوهين رأسه بالنفى وأجاب «لا».

ورغم أن هذا الجاسوس كان قد خدم إسرائيل، وكر الصهيونية البغيضة، فان إجاباته كانت فى بعض الاحيان تثير ضحك أهل دمشق كافة، إن الشعب العربى الطيب الذى يتذوق الكوميديات الناجحة التقليدية فى قصص «ألف ليلة وليلة» لايسعه إلا أن يقدر المهارة التى مكنت هذا الجاسوس من أن يخدع السلطات لمدة أربع سنوات طوال، وكانت الصحافة تعبر عن الإعجاب الذى شعر به هذا الشعب أمام شجاعة العميل الإسرائيلى ودقة ذهنه، فكانت تطلق عليه اسم «الجاسوس الساحر»!

كان التليفزيون السورى يذيع بعض جلسات هذه القضية ولكن يدى إيلى كوهين لم تظهرا فى الصورة أبدا لأنهما كانتا بغير أظافر، فقد انتزعت أظافرهما واحداً واحداً.

كما أن الذين عرفوه من قبل لاحظوا تغيير شكل ذقنه، فقد انتزعت أسنانه أيضا، ويقوم إيلى كوهين بحركة عصبية، حركة جديدة تشد عضلات وجهه، فقد حدث أثناء استجوابه أن سلطوا تيارا كهربائيا على أنفه لحمله على الاعتراف!

إيلى كوهين وحيد أمام القضاة، فقد رفض منحه مساعدة أى محام للدفاع، وذلك رغم أنه كان قد عين له اثنان، الأستاذ «جاك مرسييه» الذى لا يمكن أن يعتبر عدوا للعرب إذ كان قد ترافع فى قضايا عديدة لصالح الجزائريين بين سنتى ١٩٥٤ و١٩٦٢ وكانت عائلة كوهين التى يقيم بعض أعضائها فى باريس هى التى كلفته بالدفاع عنه، وقد طلب الأستاذ مرسييه مساندة صديقه نقيب المحامين «بول أريجى» المعروف باستقلال آرائه، وهو

مثل مرسييه، من رجال المقاومة والمجاهدين لصالح الشعوب والأفراد المضطهدين، وكان أريجى يساند مرسييه بدراسة ملف القضية معه، أما مرسييه فقد سافر مرارا، بدون جدوى، من باريس إلى دمشق.

فقد قيل لهما إن القانون السورى صريح وهو ينص على أن الجواسيس الأجانب المتهمين بإفشاء أسرار تمس الدفاع الوطنى ليس لهم الحق فى أى مساعدة للدفاع عنهم، وقد عمل أقصى ما يمكن عمله لتخفيف هذا الحظر، كما قام الأستاذ «فالتر» القانونى البلجيكى والعضو فى اللجنة الدولية للدفاع عن حقوق الإنسان، بالسفر مرارا إلى دمشق لهذا الغرض، وتدخلت شخصيات عظيمة من عدة بلاد، منهم كرادلة وأدباء وشيوخ ونواب، لم يتزعزع رفض السلطات السورية التى لم تؤثر فيها حتى الاحتجاجات، والأمر جلى على ما يبدو، فإن السوريين يخشون تصريحات إيلى كوهين عند مقابلاته مع محامى الدفاع أو نقل رسالة بواسطته، إذن سيبقى إيلى كوهين فى زنزانته دون أى اتصال بالخارج!

لم يتألم كوهين كثيرا من انتظار الحكم، فانه يعرفه مقدما، ولكن أصعب شئ بالنسبة للإنسان فى مثل هذه الحالات هو الانعزال، الوحدة، لا أقارب ولا أصدقاء، لا عون، فقط أسئلة ثم أيضاً أسئلة، إنسان وحيد على كوكب خال!

لمّا بدأت المحاكمة كانت الجلسات الأولى سرية، ولكن ذلك لم يمنع الصحافة اللبنانية من نشر بيانات وافية عنها بعد بضعة أيام.

إيلى كوهين فى قفص الاتهام وحيداً، يختلف كل الاختلاف عن سائر المتهمين المقدمين للمحاكمة، إنهم ثلاثون، وقيل إنه قد تم القبض على مايقرب من ٥٠٠ شخص تم استجوابهم بمناسبة التحقيق فى هذه القضية ومن بين المتهمين توجد بعض السيدات الشابات وهن سكرتيرات وإداريات موظفات فى راديو دمشق أو فى التليفزيون، ومضيفات جويات، كان ثابت قد عرف كيف يستحوذ على رضائهن بكرمه، وكيف يحصل منهن على معلومات وصور خطابات ومستندات لم تكن شبكة تجسس، بل كانت أكثر وأفضل من الشبكة، كانت شريحة من المجتمع الدمشقى!

ذكريات من الإسكندرية

سكت إيلى كوهين لحظة بعد أن أدلى بشخصيته، كان صوته ضعيفاً وملامح وجهه تدل على إنهاك قواه ولكن نظره كان ثابتا ويلمع أحياناً بقوة وانتباه، ثم مال إلى الأمام وبصوت متردد قال:" سيدى الرئيس، إنى أريد محاميا"!

إيلى كوهين يعلم جيداً أنه لن يجاب إلى طلبه غير أنه يلعب دوره، دور الجاسوس الذى يشعر بضياعه ووحدته وانعزاله عن كل عون ولكنه يحاول بائساً إنقاذ نفسه، يجب عليه أن يتقدم بهذا الطلب مع علمه بعدم جدواه.

- " ماذا ؟ محام ؟

- " نعم، إن كان ذلك ممكناً ".

ويتظاهر رئيس المحكمة بالاندهاش..لابد أن يقضى على آمال هذا الجاسوس الصهيونى، ويجيبه فى الحال بكل خشونة:" حيث إن الادعاء يتركز على تهمة التجسس فإن المحكمة ترفض طلبك، ومع ذلك يا كوهين فإن عندك محامياً مدافعاً مدوياً، إن الصحافة المأجورة كلها فى خدمتك".

وانتهى الأمر، إنه واضح، إيلى كوهين يعرف الآن أنه لن يكون له محام، كان عليه أن يطلب هذا الطلب بغية إحراج السلطات السورية، ولكن شيئاً من هذا الحساب لايبدو على وجهه بل إنه يتظاهر باليأس.

ويعود الرئيس إلى الاستجواب، يطلب تفاصيل عن معيشة إيلى كوهين السابقة، عن طفولته وشبابه وتعليمه فى مصر.

" هاجر والدى من حلب قبل الحرب العالمية الأولى، استقر أهلى فى

الإسكندرية حيث ولدت، بدأت دراستى فى مدرسة الطائفة اليهودية وتابعتها فى جامعة فاروق، فى سنة ١٩٤٨ بعد حملة فلسطين، هاجر اثنان من إخوتى وشقيقتى إلى إسرائيل، وتبعهم والدى. أختى" أوديت" تزوجت " كرمونا " واستقرت فى " باث يام " وشقيقى " عزرا " يقطن فيها أيضا".

صوت الجاسوس منخفض لكنه ثابت وهو يتحدث بالساعات أمام المحكمة، وفى روايته عن معيشته السابقة شئ من الآلية ومن الشعور بيأس الموت، إنه ليس من السهل أن يستمر فى التمثيل وهو يعانى الآن مأساة الموت فى حين تطفو الذكريات من قاع ذاكرته.

الإسكندرية.. كانت الحياة فيها حلوة وجوها كان مشبعاً باللذة، وقد فضل إيلى كوهين أن يبقى فيها، فى حين كان غيره من اليهود يسافرون لبناء الوطن اليهودى وسط الرمال، كان يحب الدرس والهدوء، التحق بجامعة فاروق، كان يريد أن يصبح مهندساً، كانت عائلته قد سافرت إلى إسرائيل، كان يتأثر من سماع مايحكى عن " مولد إسرائيل " ولكنه لم يكن يتحمس له، كان يتصور الحياة الخشنة، المدن الجديدة، معيشة المعسكرات، وأيضا الأصل والعادات الغربية للطبقات الحاكمة، إن الحياة فى مصر حلوة، كان له فيها عاداته وأصدقاؤه واتصالاته الطيبة، إن التحفظ الذى يتحلى به والممزوج بشئ من الغموض كان يجلب له تقدير الرجال وشغف النساء، والوطن هو المكان الذى يشعر فيه الإنسان بالسعادة، انه كان يحب مصر ولكنه لم يتنكر لأصله، التحق بالمدرسة الكهنوتية التى كان الحاخام يديرها ونجح فيها بتفوق!

كانوا يهمسون أن أرملة غنية كانت خليلته، إنها صاحبة محل لتجارة الملابس الداخلية فى شارع " المسلة " بالإسكندرية، كان عمره ٢٤ سنة، وكانت هى تكبره فى السن، وضعت هذه العلاقة نهاية للصعوبات المادية التى كان يعانيها فى معيشته السابقة، قبل ذلك كان مضطراً للعمل كمساعد محاسب ليغطى نفقاته المدرسية.

حقا، إن جو السعادة الهادئة التى كانت تسود مصر قبل سنة ١٩٤٨ قد زال، كثيراً ماكان والده يذكر جو التسامح والكرم الذى كانت تمتاز به مصر التى كانت أقل البلاد العربية تعصبا فى الشرق الأدنى. وليس أدل على ذلك من أن " لاتريبون جويف " (المنبر اليهودى) وهى مجلة صهيونية كانت تصدر

وتقود حملة للتقرب بين الصهيونية والبلاد العربية دون أن تزعجها السلطات المصرية، كانت تنشر المقالات والرسائل والآراء الحرة لقادة وشخصيات بارزة تحبذ السلام والتآخى بين اليهود والعرب، ولم توقف هذه المجلة إلا فى سنة ١٩٤٨ حين اعتقل رئيس تحريرها " جاك رابين "...

وأخيراً أصبح إيلى كوهين وحيداً فى المحكمة كما كان وحيداً فى مهمته، إن الأعمال التى اتهم بها سامى عازر لاتذكر أمام ما فعله هو، فقد بقى أربع سنوات فى دمشق تحت اسم كمال أمين ثابت، يقوم بعمله كالذئب المتوحش الوحيد، يتسلل فى جميع الأوساط ومن حوله آذان صاغية.. كان وحيداً.. ولكنه قام بإحدى الخدعات الكبرى فى تاريخ الجاسوسية!

مولد جاسوس!

إن الزمن لا قيمة له عندما تقاس الحياة بمقياس العدالة السياسية، إيلى كوهين يعيش " مع إيقاف التنفيذ" يهمس فى انتظار الموت، لقد ساقه القدر إلى دمشق حيث تدور محاكمته عن جرائم لم تعد تهمة. إن الواقع يصطدم فى وعيه كما تصطدم النحلة على لوح زجاج. إنه يشعر كأنه يحلق فى فضاء خيالى، فضاء الذكريات دون اعتبار للزمن. ولكن كيف نُسجت خيوط هذا القدر الغريب؟ إنه لم يكن يريد مغادرة مصر، لم يرغب أبداً فى مغادرتها: " إن كنت قد سافرت يا سيدى الرئيس، فلأنه لم يكن فى مقدورى البقاء فى مصر"

رأينا كيف أن عواصف السياسة قد أزعجت حياة كوهين الهادئة، من بعد قضية شبكة التجسس الصهيونى، كان اسمه على القائمة السوداء لإدارة المخابرات المصرية، حقيقة إنه أثبت براءته وأفرج عنه ولكنه كان مشبوهاً، وقد صاحبت هزيمة سيناء فى سنة ١٩٥٦ موجة اعتقالات، كان إيلى كوهين من بين الذين تم اعتقالهم باعتبارهم يهوداً خطرين.

هكذا.. هى الظروف التى قذفت به خارج مصر، إنه فى الواقع لم يكن يعرف الى أين يذهب ولكن السلطات هى التى أجبرته على تقديم طلب للهجرة إلى إسرائيل، وطرد فى سنة ١٩٥٧، لم يكن أمامه إلا حل سريع: أن يلحق بأسرته ويتنازل رسمياً عن جنسيته المصرية وأخرج من معسكر الاعتقال واقتيد إلى ميناء الإسكندرية بين شرطيين والقيود فى يديه، أبحر على باخرة متجهة إلى إيطاليا، وعندما رأى أرض مصر التى أحبها بشغف، تختفى رويداً، أحس بتمزق داخلى وبالدموع تملأ عينيه، كان فى وسط البحر بين قارتين وأمامه أوربا ومستقبل لم يتلون بعد!

وصل إلى نابولى ذات الوجه المزخرف، بسمائها الزرقاء وبالأهالى الذين يملأون أرصفتها، وعساكر المرور- بقفازاتهم البيضاء الطويلة - الذين يوجهون السيارات كما لو كانوا يقودون فرقة موسيقية لم يكن لديه متسع من الوقت، كان عليه أن يذهب أولاً إلى الوكالة اليهودية لإتمام الإجراءات اللازمة.

بعد يومين كان يتريض على سهل فى حوارى نابولى المرحة التى كان يشبهها بحى العطارين فى الإسكندرية " سانتا لوتشيا " على خليج نابلس تذكره بضاحية الشاطبى التي كان يلعب على شواطئها فى أيام طفولته،ولكنه كان يلاحظ أن هناك مزيداً من الحركة والنشاط ينبض فيها، مكث فى نابولى بضعة أسابيع ليكتشف جمالها وجمال بناتها، وبعد ذلك ذهب إلى جنوا ومنها أبحر إلى حيفا، كانت المبانى المرتفعة على جبل الكرمل أول ما رآه من إسرائيل، وبعد الإنتهاء من الإجراءات الإدارية ركب الاوتوبيس إلى تل أبيب وتوجه إلى باث يام حيث تقطن شقيقته أوديت.

بعد الترحيب بوصوله اضطر كوهين للتفكير فى البحث عن عمل، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، كان يشعر بالضياع فى هذا البلد الذى لم يعجبه والذى لم يكن يفهم عقليته، لم يكن معتاداً سماع اللغة العبرية، ومعاملة الأهالى الخشنة كانت تصدم شعور الرقة والذوق المصرى الذى كان محتفظاً به، كأنهم يقولون له فى كل لحظة: «لا كلفة.. لا ذوقيات، إننا هنا رواد ونريد فعالية، الوقت من ذهب» إن احترام الشخص فى إسرائيل يكمن فى موقفه أمام الحياة، الإسرائيليون - مثلهم مثل كل الذين يقومون بالبناء - لا يملكون وقتاً للمجاملات، إن الحياة ليست سهلة، يجب عليهم أن يكسبوها بالعمل مع تركيز الفكر على الهدف فى مجهود عنيد.

حقيقة، لم يعد أحد يقول له: «يهودى قذر - اذهب - إنك لست فى بلدك» إلا أنه يحتاج إلى وقت ليتأقلم، فوق ذلك كان يحتاج لمساعدة عائلته وهذا ما يضايقه فى حبه للسكون والوحدة، كان يزيد انطواء على نفسه حتى أن تحفظه الطبيعى تحول إلى نوع من الغطرسة لم يكن أحد يلتفت إليها.

وجد عملاً فى تل أبيب فى مقر اتحاد اليهود المصريين، وهو منظمة تهتم بتشغيل الإسرائيليين القادمين من مصر، كان سكرتير الاتحاد زميلاً قديماً له فى الدراسة، أعطاه عنواناً وقال إنه قد يجد هناك فرصة طيبة للعمل.. هناك

فى شارع «اللنبى».. وشارع اللنبى هذا هو أهم تلك الشوارع الطويلة التى تمتد فى تل أبيب وينساب حتى البحر، المتاجر الفخمة بواجهاتها الملأى بالمعروضات، فى المقاهى تدور المناقشات بنشاط، وفى هذا المقهى الكبير على ناصية شارع «روتشيلد» يجتمع السماسرة ووكلاء العقارات، ومن الناحية الأخرى يجتمع المحامون ورجال الأعمال وهنا فى هذه السينما الصغيرة مركز للمعاملات المشبوهة ووكر للمرشدين للبوليس، وهناك حول الميدان المزدحم، حيث يصب السوق المكشوف، مجتمع البائعين الذين ينادون على بضاعتهم من خضر وفواكه، ثم صالة سينما أخرى ومقهى حيث تجهز القهوة فى الآلات الأوتوماتيكية وبجوارها بار صغير يلتقى فيه الأحباء، بعد ذلك يوجد «المغربى» ومطاعمه الشرقية وأخيراً من ناحية الكورنيش المحلات الكبيرة لتجارة الأثاث ومبنى الأوبرا الكبير الذى كان مقراً للكنيست فى عهد الانتداب البريطانى، ثم بعض الفنادق الصغيرة التى تختبىء مداخلها تحت «البواكى»!

كان إيلى يتمشى لأنه متقدم عن ميعاده والطقس جميل جداً، توقف فى أحد أركان الشارع واشترى «ساندويتش فلافل» وهى كرات صغيرة من الحمص مقلية فى الزيت ومحشوة فى رغيف صغير مستدير، وقال فى نفسه: «إنها لا تضاهى الفلافل المصرية المصنوعة من الفول، ولكن.. فليكتف بالموجود، وشرب كوباً من البيرة ثم توجه نحو العنوان المقصود: وهو مبنى كبير نوافذه قليلة جداً لتفادى الحر فى شهور الصيف الطويلة.. دخل فيه، الدور الثالث، قاعة جلوس فيها شخصان منتظران، وفى ركن من القاعة سيدة شابة تعالج أزرار جهاز تليفونى، قدم لها كوهين الرسالة التى كان يحملها، قرأتها وتكلمت فى التليفون الداخلى، ثم تحولت نحو إيلى وأشارت إلى أحد الأبواب فى القاعة وقالت له: «ادخل» دخل فى غرفة كبيرة بها مكتب ومنضدة وعدد من الكراسى، قابله رجل قصير قام من مقعده، وفتح باباً آخر وأشار إليه بالدخول، كانت الغرفة الثانية طويلة وضيقة، بها نافذة كبيرة يتدفق منها النور، وخلف مكتب كبير، رجل يبدو أنه هو المدير، ذو وجه صارم وقوام عسكرى، يبلغ الأربعين من عمره، سلم عليه بيد قوية وقدم له سيجارة، وكان يتفرس فيه وهو يوقد له السيجارة، ثم استند على كرسيه وأخذ يسأل كوهين عن مصر!

«أتجيد اللغة العربية»؟

أجاب كوهين بابتسامة: «اختبرنى».

لم يجبه المدير بل استمر فى فحصه بنظره الحاد وهو يدخن سيجارته ثم قال له أخيراً: «قد يوجد لك عمل هنا، ترجمة جرائد عربية، أرجوك أن تتبعنى» وعادا إلى الغرفة الأولى حيث قال المدير للرجل القصير «مسيو كوهين سيقوم بترجمة مقال من جريدة عربية على سبيل التجربة».

أحنى الرجل رأسه باحترام فوق رقبته الغليظة وكتفيه العريضتين، وجلس كوهين أمام المنضدة الصغيرة ومعه بضعة أفرخ من الورق وقلم حبر جاف والجريدة المصرية «الأهرام» الصادرة فى صباح نفس اليوم، كان كوهين يجيد اللغة العربية إجادة تامة ولكن إلمامه بالعبرية كان ضعيفاً، وقد لاحظ السكرتير ذلك، فعادا فى الحال إلى المدير، وكان كوهين يجد صعوبة لتتبع حديثهما العبرى السريع، وأخيراً تم تعيينه على أن يقوم بفرز الجرائد العربية اليومية والأسبوعية والنشرات الدورية، لم يكن يعمل فى المقر الرئيسى «مكتب استيراد وتصدير» بل فى مبنى كبير فى شارع هادىء من ضواحى تل أبيب، كان يذهب إليه كل يوم ليفرز الصحف، بعد عبوره المدخل الذى كانت الحراسة عليه شديدة!

الكولونيل صلاح الدالى كان يتتبع باهتمام هذه الرواية، وسأل كوهين كيف كانت هذه الجرائد اللبنانية والأردنية والمصرية تصل إلى إسرائيل؟ وكوهين كان يبدو كأنه يصحو من حلم أو من رؤيا داخلية كلما اضطر للإجابة عن أسئلة رئيس المحكمة.

«لم أحصل على أى تفاصيل، لقد قالوا لى فقط: إننى مستخدم مؤقت فى أحد أقسام الجيش الإسرائيلى.. لا أدرى إن كانت الجرائد السورية تأتينا، لم أكن أراها أبداً، كنت أتصفح الجرائد المصرية خاصة، ولم أكن الوحيد، كان زملائى إسرائيليين من أصل عراقى أو مصرى، كنت أشتغل مع ثلاثة موظفين آخرين يقومون بترجمة المقالات التى كنت أؤشر عليها، لم يكن أحد منهم يرتدى الملابس العسكرية.. رئيس القسم كان اسمه «إسرائيل» كنت أتقاضى ١٧٠ جنيهاً إسرائيلياً.. غير أنه قد تم تخفيض عدد المستخدمين بعد مدة، ولما كنت أحدث واحد بينهم فإنى فصلت من العمل»!

على أى حال، لم يكن هذا المرتب كافياً ليضمن له الحياة المريحة التى كان يصبو إليها، مائة وسبعون جنيهاً.. فى حين أن الرجل الأعزب كان يحتاج إلى ٢٥٠ ليمكنه العيش فى المدينة.. إنه مصمم على ألا يبقى عالة على أسرته، إنه سيعمل جدياً لرفع مستواه فى اللغة العبرية وسيلتحق بفصل محاسبة، بعد بضعة أسابيع وجد عملاً مربحاً فى جمعية تعاونية لبيع الأدوات المنزلية، ونجح فى عمله الجديد وكان على وشك تعيينه مفتشاً على فروع الجمعية عندما اصطدم من جديد بضرورة إجراء تخفيضات فى ميزانية الشركة ووجد نفسه مرة أخرى بدون عمل، وكانت الصدمة شديدة، خاصة أنه كان قد تزوج فى هذه الأثناء، كانت زوجته من أصل عراقى واسمها «نادية مجلد».. إنه عاطل وعليه ديون لأنه كان قد أثث شقته بالتقسيط، إنه يصحو من حلم جميل.. زواجه، سفرهما الذى كسبه بورقة «يانصيب» لشهر العسل على شاطىء البحر الأحمر.. ويزيد من بؤسه أن زوجته كانت حاملاً واضطرت لذلك إلى أن تترك عملها كممرضة.

تلقى بعد مدة رسالة من أحد زملائه الذى كان يعمل معهم فى فرز الجرائد العربية لحساب وزارة الدفاع، اسمه «زالمان» يخبره بأنه يود أن يعرض عليه عملاً قد يناسبه ويطلب مقابلته فى اليوم التالى.

كان كوهين جالساً فى مقهى «فيريد» ينتظر زالمان ويشاهد حركة الشارع النشطة المرحة ويقع المقهى على ناصية شارعين مهمين يطلق على أحدهما «شانزليزيه تل أبيب» كان كوهين ينصت إلى العصافير تشقشق والأطفال يلعبون فى الميدان، كان يقال أيضاً عن مقهى «فيريد» إنه مقهى «الهيستادروت» أى مركز النقابات الإسرائيلية الذى يشبهونه «بالكرملين» ويهمسون بأنه ملتقى العملاء السريين وغيرهم من المرشدين!

حضر زالمان وجلس مع كوهين بعد التحيات وأخذ يتحدث معه عن أشياء شتى وهو ينظر إليه متعجباً من قدرته على الانطواء، طلب زالمان زجاجة من البيرة وبعد أن شرب منها كوبا دخل مباشرة فى الموضوع: إن المسئولين فى وزارة الدفاع قد لاحظوا فاعلية كوهين وقدرته على العمل ويريدون أن يكلوا إليه عملاً ذا مسئولية وقد كلف بأن يعرض على كوهين أن يلتحق بخدمة

المخابرات الإسرائيلية وفى حالة قبوله يحتمل أن يوفد فى مهمة إلى البلاد العربية فى الشرق الأدنى!

شكره كوهين وقال له إنه يقدر هذه الثقة ولكنه يرى أن العمل لا يناسبه لقد تزوج الآن وزوجته حامل.. حقيقة إنه محتاج للعمل ولكن مثل هذه الوظيفة لا يمكن أن تناسبه فى ظروفه الراهنة!

وقف الرجلان، وقبل أن ينصرف زالمان وضع يده على كتف كوهين وقال له وهو يبتسم: «تعرف يا إيلى، إنى أخشى أن تبقى بدون عمل لمدة طويلة جدا»!

بعد بضعة أيام ذهب زالمان إلى منزل إيلى كوهين وكان هذا الأخير قد فكر مليًا فى موقفه إنه مازال بدون عمل، وزالمان عاد ليعرض «تجربة ستة أشهر» دون أى ارتباط وسيكون مرتبه ٣٥٠ جنيهاً فى الشهر وهذا مبلغ لايستهان به.. وقبل كوهين. إنه لم يعد يطيق أن يرى زوجته تعيش فى هذا الضيق المادى وهو بغير عمل يدور ويلف فى الشقة وابتسم زالمان؛ إن المخابرات الإسرائيلية عبأت عضواً جديداً وهى تعرفه جيداً كانت تتبعته وترقبته عن كثب منذ فصله من قسم الاستعلامات السياسية دون أن يدرى.

ما الذى أوعز إليها أن تختار إيلى كوهين؟

صدق نظره وذكاؤه وذاكرته القوية وفوق ذلك التحفظ الصامت الذى كان من صفاته الطبيعية وأصبح عنده كعادة الحلاقة يوميا حتى عائلته لم تكن تعلم تفاصيل ما جرى له فى مصر، كل ما كانت تعرفه هو أنه اعتقل فى سنة ١٩٥٦ بسبب ديانته لم تكن تعرف أنه كان صديق سامى عازر!

ويعود الكولونيل صلاح الدالى يسأل إيلى كوهين: كيف يصبح الإنسان جاسوسا فى إسرائيل؟ إنه يريد أن يعرف كل التفاصيل وكان نوع من الكراهية يظهر فى كل أسئلته ويجيبه إيلى كوهين بصوت رتيب دون أى حركة فى عينيه كما لو كان يلقى درسا طويلا من آن لآخر كانت تعتريه هزة خفيفة فى رأسه كأن الجزء الأعلى من وجهة يترك الفك الأسفل يتدحرج ويقول:

«قادونى إلى شقة فى شارع اللنبى بجوار مكتب البريد المركزى وقام شاب عمره حوالى ٢٥ سنة اسمه «يتزحاق» باختبار ذاكرتى ولم يكن يرتدى الملابس العسكرية.. كان يضع على المنضدة أشياء مختلفة يسمح لى بالنظر إليها

فترة من الوقت ثم يسحبها وكان على أن أذكرها وأصفها دون أى خطأ ودون أن أنسى واحدا منها».

ويسأله الكولونيل الدالى عما إذا كانت هذه الاختبارات قد تكررت كثيرا ويجيبه كوهين: «نعم عدة أيام» لدرجة أنه كان فى النهاية يمكنه أن يعدد ويصف كل الأشياء بدقة متناهية مهما كانت سرعة سحبها؛ إن ذاكرته التى كانت قوية من طبيعتها أصبحت لاتفوقها ذاكرة ويستمر فى رواية تدريبه إنه لايفشى أى سر، إن كل أقسام الاستعلامات السرية تمتاز ببعض الخصائص التى تتناسب مع عقلية أعضائها وبطبيعة الحال الكولونيل الدالى يعلم جيداً أن الاستعلامات الإسرائيلية تنتمى إلى أقصى درجة الصفات الظاهرة فى أعضائها، إن هذا حقيقى ولكنها تعمل أيضاً لتنمية بعض الصفات الخفية التى لم تسمح الظروف بظهورها إن كل واحد من البشر يملك مواهب لم تمكنه الحياة من استغلالها ويستطرد كوهين:

«كنا نتنزه فى تل أبيب أنا ويتزحاق كنا نقف أمام كشك جرائد وأتظاهر بأنى أطالع الصفحة الأولى من الجرائد المعروفة فيه ولكن كان على أن أكتشف وجود الاشخاص الذين يتتبعوننى ومرات أخرى كنت أنا أتتبع شخصا ما، كنت أنجح فى بعض الأحيان وفى غيرها أفشل كان يتزحاق يكرر التجربة بدون ملل ثم بعد ايام يعرض على بعض الصور الفوتوغرافية التى التقطت لنا أثناء سيرنا وكان المطلوب منى أن استدل على الأشخاص الذين تتبعونا والتقطوا الفيلم!

ويروى كوهين بعد ذلك تدريبه على أعمال الارسال بالراديو الذى استمر حوالى شهر، فى الواقع استمر تدريبه مدة طويلة وفى بعض الاحيان لم يكن يعود الى منزله بل يستمر فى التدريب طوال الليل، كان الهدف من هذه المرحلة من التدريب أن يصبح انسانا آليا لانه سيصير فيما بعد الإنسان الآلى المفكر فى ال «ش. ب» وكان كوهين يستغرب من عدم الاعتناء بتدريبه البدنى، كان قد مر من الكشف الطبى ووجدت صحته جيدة وهذا يكفى ولكن كان يتساءل: كيف يمكنه الدفاع عن نفسه إذا ما اعتدى عليه ولما سأل يتزحاق فى هذا الشأن أجابه بأنه يجب ألا يفكر فى ذلك أبداً وأن مهمته سوف لا

تقتضى مثل هذا الخطر وكان يربت على جمجمته ويقول له «إنك ستحارب بهذا» أى بمخك!

ثم أعطوه جواز سفر فرنسيا باسم مارسيل كوهين وأرسلوه إلى مدينة القدس وكانت التعليمات أن يتصل بعدة أشخاص ولكن عليه ألا يتكلم الا باللغة الفرنسية أو العربية فقط، كان يصنع لنفسه شخصية جديدة وكانت اقامته فى «مدينة السلام» إحدى الفترات الطيبة فى حياته أعجبته مدينة القدس، كان يقضى أوقات فراغه فى السير طويلا فى شوارعها وكثيرا ما كان يقف عند أسوار المدينة القديمة وهنا عند الحدود كان يمكنه أن يرى طريق «أريحا» القديم بما عليه من أنقاض وبدأ كوهين فى القدس يصبح شخصاً آخر ذهب عدة مرات إلى عالم نفسانى كان عليه أن يحكم - بناء على اجاباته - ما اذا كان فعلا قد بدأ يجسد شخصيته الجديدة.

ثم أعطوه دروسا أولية فى الدين الاسلامى.. لاشك فى أنه سيسافر إلى بلد عربى.

كانت تنتابه بعض نوبات يأس ولكنه كان يفكر فى مسئوليته فى ثقة رؤسائه!

وشيئاً فشيئاً تباعدت هذه النوبات ثم اختفت أخيراً، وكان قد أصبح شخصاً آخر وفقد روحه ولم يعد يعمل ويحس إلا بالشخصية الجديدة التى زرعوها فيه!

وقال له الكولونيل الدالى متهكما: «لابد أن زالمان كان راضيا عنك»!

«نعم يا سيدى الرئيس كان راضيا عنى جدا»!

وتتقابل الأسئلة والأجوبة فى قاعة المحكمة بقصر العدالة فى شارع النصر بدمشق:

«إنى تلقيت علومى فى الصلوات التقليدية ومن الفصول المهمة من القرآن على يد قاض مسلم اسمه الشيخ «محمد سليمان».

- «ماذا علموك بصفة خاصة؟»
- «الصلوات الخمس وبعض السور والفاتحة».
- «لماذا كان المفروض عليك أن تدرس ديننا؟»

- «لأنه كان سيذكر فى البطاقة الشخصية التى ستمنح لى أن ديانتى الاسلام».

- «وكل ذلك حتى يكون يهوديا صالحا؟ هه. ليجعلوا منك جاسوسا كاملا؟»

وينفعل الكولونيل صلاح الدالى ويصعد الدم إلى وجهه وهو يميل نحو المتهم، ويجيبه إيلى كوهين بصوته الرتيب:

- «أكدوا لى أن الديانة الإسلامية تتفق مع الشخصية التى سأنتحلها أكثر من الديانة المسيحية المعقدة»!

- «إنك استغللت حتى الإسلام لتصبح جاسوساً، انتحلت ديننا حتى تخدعنا بأنك مسلم وتدخل سوريا بسهولة.. يخرب بيتك.. إن أسيادك فى إسرائيل قد تناسوا أنهم قد ذبحوك عندما أرادوا استغلال دين الإسلام، إنك نسيت التاريخ أنت أيضا، هل تعرف التلمود؟»

- «لا يا سيدى الرئيس».

- «كيف؟ ألم يعلموك التلمود؟»

- «لا يا سيدى الرئيس».

- «والتوراة ؟ هل تعرفها؟»

- «نعم يا سيدى الرئيس».

- «إننا كلنا نعرف التوراة، ولكنى لا أفهم كيف أنك تجهل التلمود، قل لى : هل هذه تعليمات جديدة من الصهيونية؟»

- «لا أعلم يا سيدى الرئيس».

- «يخرب بيتك..»!

ويبقى إيلى كوهين صامتاً دون حركة.

- «كفى، لا فائدة من تعليمك التاريخ، قل لى: هل والدك لا يزال حياً؟»

- «لا ياسيدى الرئيس. إن والدى مات فى سنة ١٩٦١».

- «دعنا نعود إلى مسألة الديانة، إنها ليست فقط القيام ببعض الطقوس، لا يكفى أن يقول الإنسان : «الله أكبر» حتى يصبح مسلما. هه؟»

- «أعلم ذلك يا سيدى الرئيس».

- «أنتم أيها اليهود، مشغولون بالتلمود ولكنكم تجهلون ما هو الإيمان، أنتم ضللتم وانحرفتم عن الطريق السوى لأنكم أنكرتم الدين الصحيح وتمسكتم بالتلمود، سيأتى يوم نتخلص فيه من عصابتكم إلى الأبد، لن يبقى فى وطننا العربى الكبير أى جاسوس، ولا أى عميل أجنبى، كل الذين يناصرونكم، كل الذين تعلقوا بالتلمود وأنكروا القرآن سيصيبهم المصير نفسه، سيهلكون جميعاً، سنتخلص منكم دفعة واحدة إن شاء الله».

إن مثل هذه الاسئلة والتعليقات التهكمية، تعطى صورة عن شخصية الكولونيل صلاح الدالى الذى يرأس المحكمة.

فهو الخبير الذى يفحص قلب المتهم ويحلل أفكاره!

الرئيس يزمجر ويرعد وعلى جانبيه القاضيان المساعدان، لم يحضر الجلسة أحد إلا عن طريق بعض مناظر التليفزيون التى سمحت بها السلطات، ولا عجب.. إنها قضية عميل صهيونى، إسرائيلى، لابد من أن يحمل كل خطايا إسرائيل، وفى هذه القضية كان يجب على صلاح الدالى أن يمثل دور الاستنكار وأن يكون صدى الرأى العام الغاضب لوقوعه فى خدعة هذا اليهودى القذر!

ويستمر الاستجواب لمعرفة كل تفاصيل تدريب الجاسوس. كيف ولد وكيف تكون هذا الرجل الذى تمكن من كشف أخطر أسرار الدولة فى سوريا، إن الشخصية الأصلية التى ولد بها (إيلى كوهين) وكبر وأحب بها، هذه الشخصية قد خلعت عنه وهى ترقد الآن فى مخازن أدوات قسم الاستعلامات الإسرائيلى، أما العميل الذى يحاكم الآن فى دمشق فهو شخص آخر!

- «كيف حصلت على اسم كمال أمين ثابت؟»

- «بعد أن تلقيت العلوم الأساسية فى القرآن والصلوات الإسلامية أعطيت اسما جديداً وهو كمال ولقبا جديدا وهو أمين ثابت باعتبار أنه اسم والدى، أما والدتى فكان اسمها سعدية إبراهيم!

والد ووالدة من؟.. الشخصية الأصلية أم الجديدة؟ كيف يمكن التمييز بينهما.. ثم يقرأ الكولونيل فى الملف المفتوح أمامه ويقول :

- «لك أخت أكبر منك سناً، ولما بلغت سن الخامسة غادرت بيروت حيث ولدت وذهبت مع عائلتك إلى الإسكندرية على الشاطئ المصرى، وتوفيت أختك الكبيرة بعد ذلك بسنة، كان والدك تاجر أقمشة وفى سنة ١٩٤٦ سافر عمك إلى الأرجنتين وشجعكم على اللحاق به، وقد استقرت عائلتك فى بيونيس إيرس فى سنة ١٩٤٧، وقد فتح والدك وعمك محلا تجاريا ولكنهما أفلسا، توفى والدك فى سنة ١٩٥٦ ولحقته والدتك بعد ستة أشهر فأصبحت يتيما وتكفل بك عمك وأدخلك فى شركة سياحية، وكالة «مارادى» حيث كنت مرضياً عنك كل الرضا»..

ويرفع الكولونيل الجلسة ويستأنفها بعد ساعتين، ويحكى إيلى كوهين كيف أنه أتم تبديل شخصيته، ولما تشرب تماما هويته الجديدة، قابله زالمان لآخر مرة وأخبره أنه يجب أن يستعد للسفر، كان زالمان قد ذهب إليه فى شقته، يشرب معه «الكونياك» الإسرائيلى «ويمز» بالزيتون الأسود، وكان كوهين وحده فى الشقة لأنه بعث بزوجته نادية عند والديها، كوهين يسأل زالمان : إلى أين سيرسلونه؟ ويجيب زالمان بعد فترة بلهجة جافة : «ليس لك أن تسأل، ما عليك إلا أن تطيع الأوامر». يحتفظ كوهين بهدوئه ويقول : «لا تزعل، أرجوك، كمِّل شرحك» ويشرح له زالمان كيف أن شخصا اسمه «جدعون» سيأتى له فى الغد ويوصله إلى مطار «اللد» ودَّعه زالمان بعد أن تمنى له حظا طيبا واختفى من حياته كما سبق أن اختفى مدربه الأول يتزحاق!

كان ايلى يتساءل كيف سينبئ زوجته بسفره المفاجئ، يجب ألا يشتبه أحد من عائلته - ولا حتى زوجته - فى طبيعة عمله، كان يقول لهم إنه موظف فى شركة تجارية وقد يضطر كثيرا إلى السفر، وكانت عائلته قد استغربت عندما ترك «شاربه» ينمو مما كان يزيد فى مظهره الشرقى، وكان قد قال وقتئذٍ لشقيقه «إفرايم». إنه سيحتفظ بشاربه إلى أن ينعم الله عليه بولد ذكر!.. وكان قد أنجب بنتا جميلة أسماها «صوفيا» كيف يفسر الآن هذا السفر العاجل والمفاجئ؟ سيقول إنه موفد إلى أوروبا لأعماله، ولن تدقق معه زوجته، إذ لم يكن من عادته أن يتحدث عن عمله، وأنه قد يكون فى ذلك ترقية له!

حضر جدعون فى اليوم التالى بسيارته وذهبا فى الحال إلى المطار، وسلمه خمسمائة دولار وجواز سفر وتذكرة طائرة ودله على الطائرة التى

سيركبها، وهى المتجهة إلى زيورخ، وكان ذلك فى فبراير ١٩٦١، ولما وصل إلى زيورخ وذهب إلى مكاتب شركة الطيران السويسرية، تقدم إليه رجل اسمه «سالينجر» طويل القامة أشيب الشعر، ومكث بعض الوقت فى زيورخ حيث تلقى تدريبا مماثلا للذى تلقاه فى تل أبيب، وفى ذات يوم سلموه تذكرة طائرة متجهة إلى شيلى وكان جواز سفره يحمل أيضا تأشيرة مؤقتة إلى الأرجنتين وهى الجهة التى يقصدها فعلا، وأخبروه أنه فى نفس ليلة وصوله إلى بيونيس إيرس سيقابل فى مقهى «كورينتاس» شخصا سيتولى مد تأشيرته المؤقتة وتحويلها إلى تأشيرة إقامة فى الأرجنتين.

توجه كوهين إلى مطار زيورخ وكان يوم أحد، وكانت الطائرة الضخمة التى سيركبها أمامه وكأنها طائر كبير أبيض ملطخ بالدم، وشأنه شأن جميع الشرقيين فقد كان يرى فى ذلك إنذارا مبهما ينبئه بمصيره، لقد قضى الأمر، لابد من السفر، وانتهت الإجراءات وركب الطائرة واستقبلته فيها شابة جميلة وقادته إلى مقعده بجانب رجل دين كاد ينام، وظهر نور صغير يأمره بربط حزام الأمان وبعدم التدخين.. إنه لا يدخن أبداً، بدأت الطائرة تتحرك إلى طرف الممر، ثم أطلقت سرعتها وأحس بتقبض فى معدته، وبصوت المحركات القوية يهدأ ففهم أنها ترتفع فى الجو!

كانت هذه أولى رحلاته الكبيرة، وكان وجوده على هذا الارتفاع الهائل، فوق آلاف الأقدام بعيداً عن الاضطرابات الأرضية، يعطيه شيئا من الشعور بالراحة اللذيذة، كانت الجبال تظهر من بين السحاب، وظلت الطائرة تسبح على بحر من القطن الأبيض، ثم تتابعت المراحل كأنها درس مختصر فى الجغرافيا العالمية «جنيف» أربعين دقيقة - فنجان قهوة ثم «لشبونة» - جمال البرتغال، وتمر المضيفة لتوقظه وتقدم له الأطباق الجميلة الشكل ولكنها عديمة الطعم، وينام مرة أخرى ويصحو مع شروق الشمس، البحر بساط أزرق لا حدود له. ثم تبدو الشواطئ الأفريقية مطار «داكار» - جو أفريقيا بروائحه الغريبة التى تجمع بين رائحة أوراق الشجر الميتة فى الغابات الاستوائية ورائحة اليود المنطلقة من البحر ورائحة الأحجار التى أحرقتها الشمس.. إنها افريقيا أخرى، غير أفريقيا البيضاء التى عاش فيها، إنها القارة الكبيرة العميقة «افريقيا الأم».

ويسمع فى المطار صوتا دافئا يطلب إلى الركاب القاصدين إلى ريودى جانيرو وسان باولو وبيونيس إيرس ومنتفيديو وسانتياجو، أن يتجهوا إلى الطائرة، أعجبه الصوت وكان يود أن يتعرف على صاحبته الجميلة!..

فى ضوء الشمس الساطع، فى اتجاه الغرب، إلى العالم الجديد، إلى حياة جديدة، كان قد وضع على عينيه نظارة سوداء وأخذ فطوره بشهية، كانت وجهتهم البرازيل، وحلقت الطائرة فوق المحيط الأزرق اللامع وظهرت «ريو» قمع السكر - كما تبدو على بطاقات البريد المصورة، اشترى فى المطار رواية بوليسية، فيها وصف للطيبة والقسوة فى «هارلم» ووصف رجال الشرطة الأشداء والطيبين فى الوقت نفسه مع صدق بصيرتهم واستسلامهم للقدر وتحملهم لبؤس البشر.. «سان باولو».. إنه يقترب من هدفه، إنه هو أيضا سيصبح نوعا ما «رجل شرطة» يبحث عن معلومات.. أى معلومات وأى حقيقة؟.. يتناول آخر وجبة له فى الطائرة ثم يصل إلى «بيونيس إيرس» هنا ستبدأ مهمته، سيدخل «قفص الأسود» ولن يسمح له بأى خطأ.. إن الأمس بعيد جدا، قارات أخرى.. بل كوكب آخر.. فى الساعة ١٣,٣٠ بالتوقيت المحلى نزل من الطائرة فى نهاية رحلته - بعد أن أمضى هذا السفر الطويل خارجا عن شخصيته، وأخيرا وصل إلى مقر شركة الطيران السويسرية بشارع «سانتافى».

ويسأله الكولونيل صلاح الدالى عن ذلك الرجل الذى كان سيقابله فى الليلة نفسها بمقهى كورينتاس، وهل كان موجودا فى موعده؟

يتردد كوهين كأنه فى متاهة ذكرياته، وبعد ثوانٍ يقول :

- «نعم جاءنى فى تمام الساعة الحادية عشرة شخص اسمه إبراهام، عمره حوالى ٦٥ سنة، شعره أبيض ناصع، وأخبرنى بأنه سينزلنى فى غرفة مفروشة استدل عليها من إعلانات جريدة «لابرنسا» الصحيفة اليومية الكبرى فى بيونيس إيرس، وبعد ذلك كان يجب علىّ أن أذهب أربع مرات فى الأسبوع إلى مدرس ليعلمنى اللغة الأسبانية».

- «من كان إبراهام هذا؟»

- «لا أعرف شيئاً عنه».

- «كيف يا كوهين؟ لقد اعترفت بنفسك أنك قابلته عدة مرات».

- «صحيح يا سيدى الرئيس، ولكن بخلاف هذه المقابلات القصيرة لم أكن أعرف شيئا عنه، كنت الجأ إليه كلما احتجت إلى نقود، أو كلما اقتضى الأمر القيام باجراءات لمد تأشيرتى، وبعد ثلاثة أشهر من مقابلتنا الأولى سلمنى بطاقة شخصية وجواز سفر أرجنتينيا، كلاهما باسم كمال أمين ثابت، وبعد حصولى على هذه الوثائق أمكننى أن أترك الغرفة المفروشة التى كنت أشغلها وأن أنزل فى مسكن أحسن، وحينئذ أعطانى إبراهام إشارة المرور الخضراء، من الآن فصاعداً كان يجب أن أكثر من الخروج والتردد على المطاعم العربية والذهاب إلى صالات السينما المتخصصة فى الأفلام العربية.

وبالاختصار أن أعمل بكل الطرق على الاختلاط بالجاليات السورية فى بيونيس إيرس، فذهبت إلى النادى العربى فى العاصمة حيث تعرفت بالسيد عبد الله الحشان الذى كان يصدر باللغة العربية جريدة اسمها «العالم العربى» فسألنى عن بعض التفاصيل الشخصية وزودنى بجرائد مصرية ولبنانية وجعلنى أشترك فى جريدته. يبدو لى أنه استلطفنى من أول وهلة إذ طلب إلىّ فى نهاية مقابلتنا الأولى أن أتردد كثيرا على النادى وأعطيته عنوانى المهنى بأنى أعمل لحساب شركة سياحة، وقد تقابلنا مراراً بعد ذلك فى فترات منتظمة.»

ويلاحظ فى هذه الفترة من الزمن، مع الاختلاط بالحياة العربية فى العاصمة الارجنتينية، أن الجاسوس الإسرائيلى قد تمكن من مقابلة الجنرال أمين الحافظ الذى أصبح فيما بعد رئيسا للدولة السورية، وكان وقتئذ ملحقا عسكريا فى سفارة سوريا فى بيونيس إيرس، كانت المقابلة الأولى فى حفلة استقبال بإحدى السفارات العربية حيث قدموا كمال أمين ثابت إلى الجنرال الحافظ باعتباره شابا سوريا مهاجرا يرغب فى العودة إلى الوطن، وعلى الرغم من أن الحافظ كان يتآمر منذ ذلك الوقت ضد النظام القائم فى سوريا، فانه لم يشعر بأى اشتباه فى هذا المواطن الغريب، ولما أصبح الجنرال الحافظ السيد المطلق فى سوريا سنة ١٩٦٣ كان كمال أمين ثابت قد استقر منذ سنتين فى دمشق وأصبح متداخلا فى أعلى الدوائر السياسية - وأخيراً لعب الرئيس الحافظ دوراً مهمًا فى محاكمة كوهين!

يتململ الكولونيل صلاح الدالى على كرسيه يريد أن يقفز فى قاعة المحكمة وينقض على كوهين ليبصق فى وجهه ويصفعه ويطرحه أرضاً يدوسه بقدميه وأخيراً يقول له بصوت متغير:

- «إذن لقد أصبحت يا كوهين شخصية بارزة فى الجالية السورية بـ «بيونيس إيرس» بفضل هذا المسكين عبدالله الحشان لابد أنك تلقيت تعليمات جديدة فى ذلك الوقت؟».

- «نعم ياسيدى الرئيس» بعد مرور بضعة أشهر جاءنى إبراهام وسألنى عن تفاصيل عملى وعما إذا كنت فى تقدم ، بعد أن أطلعته على ما وصلت إليه قال لى إنه يجب على أن أبلغ جميع معارفى أننى أنوى السفر فى رحلة إلى عدة بلاد عربية لحساب شركة السياحة التى أشتغل فيها وأنه يلزمنى لهذا الغرض الحصول على خطابات تقديم وتوصيات لأقاربهم وعائلاتهم فى البلاد التى سأتوجه إليها، فأعطانى عبدالله الحشان أربعة خطابات منها خطاب لابنه فى دمشق وآخر لابن عمه فى الإسكندرية وآخران إلى بيروت أحدهما خطاب إلى مدير أحد البنوك وتمكنت دون صعوبة من أن أحصل على تأشيرة لستة أشهر للبنان، كما أن سفارة مصر فى بيونيس إيرس منحتنى التأشيرة بسهولة.

مما لاشك فيه أن إيلى كوهين لم يكن يتيسر له إتقان دور كمال أمين ثابت بهذه الدرجة إن لم يكن قد استفاد بقدر كبير من صداقته لعبدالله الحشان فإنه كان يلاحظه بدقة ويلتقط منه العادات والتقاليد المتأصلة فيه كسليل لعدة أجيال من أهالى دمشق ومن جهة أخرى فإنه استفاد من خطابى التوصية اللذين حملهما معه لابن الحشان ولنجيب حرب وقد قبض فيما بعد على هذين الرجلين اللذين حوكما معه فى نفس القضية وكان ابن الحشان مهددا بالحكم عليه بالإعدام، أما عبدالله الحشان نفسه فكان متهما بأنه لم يكتف بمساعدة الجاسوس الإسرائيلى بل إنه تعاون معه مما جعله يتميز غيظا من أنه قد خدع وتورط إلى هذا الحد فحرر مقالا من نار نشره فى صحيفة يومية كبيرة تصدر فى بيروت وروى فيه تاريخ علاقاته بثابت المزعوم كما يلى:

فى يوم ٢٣ فبراير ١٩٦١ زارنى فى مكتبى بادارة تحرير جريدتى فى بيونيس إيرس رجل فى الثلاثين من عمره بشرته فاتحة وشعره داكن كان يريد الاشتراك فى صحيفة «العالم العربى» ودلنى على عنوانه بشارع تاكورانا رقم ١٤٨٥ وذكر لى

أنه من أصل مصرى وأطلعنى على جواز سفره لإثبات ذلك ثم قابلت أمين ثابت مرات عديدة فى حفلات استقبال سفارات الدول العربية وأيضا فى نادى الشبيبة العربية، بيوينس ايرس وكنا نتحث معا، كان يدل مظهره على أنه لا يحب الثرثرة ولكن هذا التحفظ نفسه كان يشعرنى بحدة ذكائه، كان على الدوام جادا لايتزعزع وكان شغوفا بالمسائل العربية حتى طلب منى الاطلاع على الجرائد العربية التى كانت تصلنى بوفرة، وفى ١٣ مايو ١٩٦١ جاء بحيينى ويبلغنى أنه سيعود إلى بلده، كنت قد انتهيت فى الحال من تحرير خطاب إلى ابنى فى دمشق وبما أن ثابت كان سيسافر إلى سوريا فقد رجوته أن يسلم الخطاب لابنى بمجرد وصوله إلى دمشق وهذه المجاملة البريئة هى التى ساقت ابنى إلى السجن ولكن لست أنا الذى بعث بهذا الجاسوس الإسرائيلى إلى سوريا، إنهم القناصل العرب الذين كان على علاقة ودية بهم والذين منحوه التأشيرات اللازمة ومن جهة أخرى إذا كان كوهين قد نجح فى خداع أقسام الأمن فى البلاد العربية فهل أنا المسئول عن ذلك؟ بماذا يلومونني؟ بأنى لم أتمكن من كشف سر شخصيته الحقيقية؟

فى الواقع لم تكن الشرطة السورية - بكل أقسامها ومخابراتها المضادة للجاسوسية - أمهر من عبدالله الحشان!

ويستطرد إيلى كوهين فى روايته: غادر بيونيس إيرس ووصل إلى زيورخ حيث قابل «سالينجر» الذى سحب منه جميع الوثائق الخاصة بشخصيته المزورة وأعاد له جواز سفره الإسرائيلى، إذ كان عليه أن يذهب أولاً إلى إسرائيل.

فوجئت زوجته نادية بعودته وكانت فرحتها كبيرة جدا بملاقاته بعد هذا الغياب الطويل وبعد الترحيب وبثه عواطفها أمطرته أسئلة ولكن كوهين كان يتهرب من الرد والإفصاح بمهارة أذهلته هو نفسه كان يقول إنه قد حصل على ترقية وأن عمله سوف يضطره للتغيب كثيرا!

وبعد وصوله إلى تل أبيب توجه إلى بيت آخر فى شارع «اللنبى» حيث أكمل تدريبه على أعمال التلغراف والإرسال اللاسلكى كما درس جميع الأسلحة المختلفة المستعملة فى البلاد العربية وسجلها فى ذاكرته وتدرب على تمييزها وفى الوقت نفسه كان يتمرن على استعمال أبجدية «مورس» المستخدمة فى الإشارات البرقية وعندما توصل إلى سرعة مقبولة أخبروه أن عليه أن يستعد للسفر وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٦١.

كوهين في دمشق!

فى هذه الأثناء كانت الجمهورية العربية المتحدة قد تفككت دون أن تتمكن القاهرة من عمل شىء سوى الاحتجاج بشدة وعاد «المارشال عامر» إلى مصر وزال هذا الاتحاد الذى كان يمكنه أن يشكل نواة جمهورية عربية متحدة حقيقية وبزواله ضاعت أحلام عبدالناصر فى وحدة عربية شاملة، وفى الوقت نفسه كان كوهين يمهد لدخوله إلى سوريا.

- «ماذا كانت التعليمات التى تلقيتها قبل مغادرة إسرائيل»؟

- «أبلغونى أن آلة الإرسال اللاسلكى ستحول إلى ميونيخ عند «سالينجر».

ولدى وصولى إلى دمشق سيتصل بى شخص من موظفى الإذاعة السورية.

- يعنى كانوا أعدوا لك من قبل سبيل الدخول إلى دمشق؟

- نعم يا سيدى الرئيس

- كمل.. ماذا تنتظر؟ هل أنت تحلم؟

- قالوا لى أيضاً: إنى سأقابل فى دمشق مهاجراً آخر عائداً من أمريكا اللاتينية مثلى، وكان قد سبق له العمل فى الإذاعة الارجنتينية.

- يا صهيونى ياقذر.. إذن كان الطريق ممهداً لك فى دمشق.

- نعم يا سيدى الرئيس وعند ذلك سافرت إلى ميونيخ.

ويوالى كوهين سرد الوقائع بصوته الضعيف الذى أنهكه التعب والتعذيب.. أصبح كوهين يحب هذه الرحلات بالطائرة، كان يعتبرها من أحسن أوقات حياته الحالية كجاسوس أحب الحركة السريعة النشطة فى المحطات الجوية

وعمال الجمارك المشغولين والمضيفات اللواتى يشبهن الزهور وواجهات المحلات الفخمة التى تعرض فيها البضائع الغالية والتى لا لزوم لها وعلى هامش هذه الحياة يمر هو بمعيشته المزدوجة، لقد أحس عند سفره من إسرائيل فى رحلته الطويلة الأولى بإحساس خفى عن الانعزال النهائى الذى سيلازمه إلى الأبد. إن العمل بالنسبة له أصبح الآن الجهد المستمر، التربص، القلق والاشتباه، الملاحظ الذى يجب أن يعلم كل شىء ولكنه أيضا وعلى الدوام الرجل الوحيد المنعزل الذى يلتقط أنفاسه ويسهل القضاء عليه!

ركب الطائرة الإسرائيلية وارتفعت به وطارت وابتعدت، كان يحس بنفسه فى حالة تشبه الصحراء صحراء النقب التى اكتشفها فى رحلة عرسه إلى إيلات مع نادية وباندفاعها فى الحب وعينيها الواسعتين عندما تغلقهما وجسدها المتموج كالبحر.. يجب إبعاد هذه الذكريات، لا يمكنه أن يعيش مع ذكرياته الآن، كفاه مصاعب كل يوم، عليه أن يفكر فيما يريده للغد.. وانغمس فى تصفح مجلة أسبوعية إسرائيلية مصورة وتأمل على غلافها الأحمر الداكن الظهر العارى لامرأة جميلة مثل الجنة المفقودة!

- «لحظة يا كوهين تعال هنا هل تتعرف على هذه الاشياء»؟

وكانت الأشياء المذكورة عبارة عن كل ما عثر عليه فى شقة ثابت أثناء التفتيش: آلات إرسال لاسلكية، حبر سحرى، متفجرات، سم، صابون إنجليزى بداخله قنابل يدوية، لعبة «طاولة» قطعها مجوفة لإخفاء الأفلام الدقيقة..!

يتقدم كوهين بخطى بطيئة، ينظر إلى الأشياء واحداً واحداً، ثم يمسكها بيده واحداً واحداً، ويمسك زجاجة السم.. فيخطفها القاضى من يده بحركة فجائية عنيفة، وبدا كأنه متحير لأول مرة فى المحاكمة، إنه فقد اتزانه المصطنع، هذا النوع من الكرامة المجروحة التى كان يتظاهر بها حتى الآن ويقول لكوهين:

- «كفى» لا تضيع وقتنا هل تعترف بأنك تمتلك كل هذه الأجهزة؟

- «نعم يا سيدى الرئيس».

- «عد إلى مكانك».

ويستدير كوهين ويعود إلى قفص الاتهام حيث يجلس ويوالى سرد روايته:

فى ميونخ قابلت سالينجر.. نعم يا سيدى، إنه كان ألمانياً».

أعطانى خمسمائة دولار وآلة الارسال ووثائقى السورية، وكلفنى بحجز محل على الباخرة «اسبيريا» من جنوا إلى بيروت، وأخبرنى بأن شخصاً سيتصل بى على المركب وهو الذى سيسهل لى دخول سوريا، وأبحرنا.. وفى اليوم السابق لوصولنا إلى الإسكندرية، بينما كنت وسط فريق من المصريين، اقترب منى شخص وقال لى بلهجة عادية: «اتبعنى، إنى أريد أن أكلمك» كان اسمه «مجيد شيخ الأرض» وفى خلال حديثنا قال لى: إنه يملك سيارة.. وكانت هذه العبارة إشارة إلى أنه مستعد لتسهيل وصولى إلى دمشق، وسألنى عما سأقوم به فى حياتى المقبلة، وحدثته عن مشروعات «كمال أمين ثابت» وفى اليوم التالى وصلنا إلى الإسكندرية».

نزل كوهين على أرض مسقط رأسه دون أن يشعر بأى اضطراب، لقد نجح فى إخماد أى عاطفة لا جدوى منها، فى بدء رحلته كان يشعر بأنهم يقتلونه بل إنهم «يسلخون» كوهين من جلده، ليضعوا جسمه وهو مازال ساخنا فى جلد شخص خيالى اسمه كمال أمين ثابت، أما الآن، فقد قضى الأمر، إنه مهاجر سورى هادىء ينزل إلى الإسكندرية لفترة وفوق الباخرة فى مينائها، ويزورها كأى سائح عادى كان يسير وسط جمهرة المتربصين ويمر دون إظهار أى عاطفة أمام دكان أنيق كانت تملكه سيدة تعلقت يوماً بحب شاب يصغرها فى السن، ساعدته، أحبته، ولكنه سافر فى أحد الأيام!

وعلى طريق الميناء اشترى «مانجو» وصعد إلى المركب، ونظر إلى الشيالين وسائقى عربات «الكارو» وباخرة البضاعة الروسية التى تنزل شحنتها وبالات القطن المرصوصة بشكل هرمى.. وكان أمامه مطعم صغير جداً يرتاده البحارة، صعدت منه إلى أنفه رائحة «الفول المدمس» فنزل من الباخرة ودخل المطعم واختلط بالشيالين والمراكبية، لقد استرد شهيته، شهية شبابه، وهو يقضم الرغيف الرفيع المشطور والمحشو بالفول المتبل بالبصل والبهارات.

وفى بيروت نزل مع مجيد شيخ الأرض فى فندق كبير مطل على البحر، أعجبته جداً العاصمة اللبنانية بعماراتها الحديثة وبقصورها المبنية لتمجيد الأعمال المالية ومرور بترول الخليج وشوارعها المليئة بالحركة والنشاط والمرح وبأنوارها الليلية؟

مكثا يومين فى بيروت قبل أن يسافرا براً إلى سوريا بسيارة مجيد، كان عليهما أن يمرا فى طريق جبلى يخترق سلسلة من المرتفعات ثم ينزل إلى الوادى ويمتد إلى مرتفعات بلاد الدروز التى يليها ٨٠٠ كيلو متر من الرمال المسطحة لتصل إلى سلسلة جبال إيران العالية، وفى وسط هذه الرمال: سوريا -دمشق.

فى قاعة المحكمة كانت الآذان متعلقة برواية الجاسوس الإسرائيلى:

توجهنا نحو «شتورا» ومنها قصدنا الحدود مباشرة، لم تصادفنا أى صعوبة فى مراكز التفتيش اللبنانية، ثم توقفت السيارة أمام التفتيش السورى، نزل مجيد من السيارة بعد أن أوصانى بعدم التحرك منها، واقترب من شخص يرتدى الملابس المدنية، علمت فيما بعد أنه مفتش فى الأمن الوطنى وكانوا يسمونه «أبوخلدون» ولكنه فى الواقع كان من أفراد المخابرات السورية واسمه الحقيقى «ناصر الدين الوالدى».

شعر كمال أمين ثابت كأن يداً تعصر أحشاءه أثناء انتظاره أمام نقطة الجمرك، ماذا لو طلبوا تفتيش الأمتعة؟ كان يمسك بكل قوة داخل أحد جيوبه، بزجاجة السم الذى كان مستعداً لتناوله فى حالة القبض عليه!

- مجيد وأبوخلدون المزعوم..

- «كفى ياكوهين، أحذرك من استعمال هذه الكلمات «مزعوم» وغيرها إنى أريد وقائع، أنت سامع؟ وقائع فقط.

- «نعم يا سيدى الرئيس، سامحنى يا سيدى الرئيس، لقد تبادل مجيد وأبوخلدون القبلات كأنهما صديقان قديمان يلتقيان بعد غياب وبعد بضع دقائق سمح لنا بأن نواصل السير فى طريقنا دون أى إجراءات أخرى، ووصلنا إلى عزبة يملكها مجيد، فواريت فيها الحقائب التى كانت تحتوى على أجهزتى، ووصلت إلى دمشق يوم ١٠ يناير ١٩٦٢ ونزلت أولاً فى فندق سميرة.

دخل إيلى كوهين (المدعو الآن كمال أمين ثابت) دمشق، وكان يسير وسط معسكر العدو بدون اضطراب، كان يشعر بالهدوء هدوء غريب مصحوب بالوعى التام، إنه مكلف بمهمة، وما عليه إلا أن يقوم بها، لم يعد يفكر فيما عساه يحدث فى النهاية التى لابد من أن تختم جميع أعمال البشر، وعدم

التفكير فيما كان عليه: إنها القاعدة الذهبية للجاسوس الحقيقى، الاكتفاء بتنفيذ أفكار قواد هذه الحرب الغامضة التى لا ترفع فيها الأعلام.. وذلك دون التفكير فى الأهداف الحقيقية المباشرة لعمله الذاتى!

فى الواقع ما هو الفرق بين مستخدم فى بنك وبينى؟ إنه يسجل شيكات من الصباح إلى المساء ويجيب عن الأسئلة كالآلة الميكانيكية، وأنا؟ إنى أسجل معلومات، وكل ما يمكننى سماعه، وأقوم بإبلاغه لآخرين، وذلك بطرق تحتاج لمهارة نادرة ولكنى أجاوب أيضا عن الأسئلة كالإنسان الآلى.. إننى إنسان آلى.. هل يعلم هذا الكولونيل الغاضب أننى إنسان آلى؟

دمشق مدينة جميلة، كانت فى الماضى عاصمة الأمويين، عندما يأتى الربيع يزدهر حزام الحدائق الذى يطوقها وتتجاوب فيه الألوان والروائح المختلفة، إن كوهين، فى زنزانته، يتذكرها بحنان، إنها مدينة كان قد أحبها، سيعود الربيع قريباً ولكنه هو لن يمكنه التريض فى هذه الحدائق!

– بعد أسبوع قابلت ابن عبدالله الحشان (كمال) وكنت على موعد معه لأسلمه خطاب والده، وتطورت علاقتنا سريعاً، كثيراً ما كنت أزوره، وقدم لى «معزى زهر الدين» ابن أخ عبدالكريم زهر الدين الذى كان رئيس أركان الجيش فى سنة ١٩٦٢، كان معزى موظفاً فى وزارة الشئون البلدية وبعد أسبوعين استأجرت شقة كان كمال دلنى عليها فى بيت جميل بحى «أبورمانة» بجوار أركان الحرب والسفارات الكبيرة وكان إيجارها السنوى ٣٩٠٠ جنيه سورى».

نجح كوهين فى كل ما سعى إليه، كمال أمين ثابت كان يبدو بمظهر التاجر الذى يريد مباشرة عملية تصدير واستيراد وهمه الأكبر هو تنمية التجارة الخارجية فى سوريا، وقد سمح له ذلك بعقد علاقات مفيدة فى عالم الأعمال وفى الإدارة العليا بمختلف الوزارات، وتنمية علاقاته وامتدادها من فريق إلى آخر وقد تمكن من التسرب إلى أركان الحزب الحاكم (البعث) ومنها إلى أوساط مجتمع آخر أكثر أهمية بالنسبة له: المجتمع العسكرى، وكان يعلن عن هدف كبير يصبو إليه وهو توثيق الصلات بين الجاليات السورية المبعثرة فى أنحاء العالم وبين الوطن الأم، وبالتالى تعزيز النفوذ السورى وتحسين المركز الدولى للبلاد!

كان يدعى بانتظام إلى حفلات الاستقبال التى يقيمها الوزراء وكبار الضباط، وسنحت له الفرصة بذلك لمقابلة الجنرال «أمين الحافظ» بعد ارتقائه كرسى رياسة الجمهورية، وقد سمع الأستاذ مرسييه المحامى، الذى لم يسمح له بالدفاع عن كوهين، سمع فى أثناء المحاكمة الرواية التالية التى كانوا يتداولونها على مقاهى دمشق: إن إيلى كوهين كان قد أهدى معطفاً من الفرو إلى قرينة الجنرال الحافظ كهدية من المهاجرين السوريين العائدين إلى وطنهم ولما عاد الحافظ من باريس حيث كان قد أجريت له جراحة مهمة بعد بضعة أشهر من توليه الحكم، كان إيلى كوهين من بين الشخصيات التى استقبلته فى مطار «المزة»، كان ذلك فى الوقت الذى بلغ فيه كوهين ذروة نجاحه، إذ كان يعتبر أحد القادة المقبلين لحزب البعث، كانت ثقته فى نفسه بلغت حداً جعله يعتقد أنه لم يعد يخشى شيئا فى قيامه بدور المهاجر السورى المحترم، كان قد اندمج فى شخصيته الجديدة واتخذ لهجة العرب السوريين والعادات المتأصلة فى أهالى دمشق!

كانت شخصية إيلى كوهين قد اختفت كلية من وراء كمال أمين ثابت لدرجة أنه كان يطرد كل فكرة يحتمل أن تذكره بشخصيته السابقة، وصار ظل «كوهين من وراء «ثابت» لا يضايقه فى أى وقت ولا بأى شكل وإن كان هو الذى يملى عليه الحوافز العميقة لتصرفاته، وقد اعترف السوريون أنفسهم فيما بعد بأنه كان نابغة فى هذا «التقمص». إن السرعة التى حصل بها ثابت على مركزه العالى والسهولة التى أنشأ بها أرقى العلاقات، وكيف أنه قام باستثمارها، بالتملق حينا والغطرسة حينا آخر، والمهارة التى كان يجمع بها المعلومات، كل ذلك قد أدهش أعضاء مجلس الثورة الذين أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض فى حذر أثناء محاكمته، خشية افتضاح شىء من الأسرار أو الملاحظات التى فاهوا بها أمامه.. وكان الشعب فى دمشق وحلب وحمص وفى كل بقعة من البلاد حتى فى «دير الزور» يتساءل كيف أن أحداً لم يشتبه قبل ذلك فى هذا الجاسوس الصهيونى، خاصة أن سوريا «دولة بوليسية» والشك عندها هو أساس التصرف، قد يقال إن توالى وقوع الثورات والانقلابات فيها قد أثر على فاعلية الأقسام السرية فى سوريا التى كانت تضطر فى كل مرة لتغيير رموزها وطرق مخابراتها وتعديل أجهزتها بل

وأحيانا «تصفية» بعض عناصرها وعلى كل حال، يبقى الأمر الواقع والغريب جداً، هو أن هذا العميل الاسرائيلى قد تمكن من الاستمرار فى نجاحه لمدة أربع سنوات، وهذا ما يفسر البغض العنيف الذى عومل به كوهين بعد القبض عليه!

وقد عرف إيلى كوهين كيف يخدع السوريين حتى بعد القبض عليه..؟ كان من قبل باعتباره من القادة العقائديين فى البعث، يدير فى الراديو إذاعة موجهة للجاليات السورية، ويضمنها بعض المعلومات المفيدة لقسم الاستعلامات الإسرائيلى وقد «أقنعته» المخابرات السورية بأن يستمر فى هذه الإذاعات بعد اعتقاله، على أن تضمن معلومات مزيفة.. ولعب كوهين بمهارة فائقة دور الرجل اليائس المستسلم لكل ما يؤمر به، فواصل إذاعاته كالمعتاد، وكانت الإذاعة تشتمل دائماً على قراءة فصل من كتاب «روبنسون كروزو» باللغة الفرنسية، وكان على اتفاق سابق مع المخابرات الإسرائيلية بأن يدخل بعض التعديل على الجملة الأخيرة فى الفصل الذي يقرؤه ليكون ذلك دليلاً على صحة المعلومات وسلامة الموقف، ولكنه بعد اعتقاله، صار يقرأ الفصل بدون أي تغيير، مما دل المخابرات الاسرائيلية على أن كمال أمين ثابت قد أصبح عديم الفائدة، وأن إيلى كوهين قد انكشف سره!!

كان استجواب كوهين دقيقا جديدا ومع ذلك فلم يكشف إلا قليلا من نشاطه، كانت المخابرات الإسرائيلية قد كلفته فى أول إقامته فى دمشق بالبحث عن آثار أحد عملائها السريين الذى اختفى فجأة، ألح الكولونيل الدالى لمعرفة هوية هذا العميل الغامض، ولكن كوهين كان يعمل وحيداً، لم يكن عضواً فى شبكة مما كان يتيح - فى حالة القبض على أحد أعضائها - الاستدلال على باقى الأعضاء.. إذن فلابد من البحث عن جميع الآثار التى يمكن تتبعها، كانت قد اكتشفت رسالة سرية تطلب من كوهين الإسراع فى البحث عن العميل المختفى، وتمكنت المخابرات السورية التى لا تخلو من القدرة والخبراء المهرة من حل رموز هذه الرسالة غير أن كوهين اقتصر على القول إن الموضوع يخص عميلا سريا كان فى سوريا وانقطع فجأة عن الاتصال برؤسائه، وكان المطلوب من كوهين معرفة ما حدث له وهل هو معتقل فى أحد السجون، ولكنه كان يجهل اسم هذا العميل ولأى سبب كان

مـوجـوداً فـى سـوريا.. ويتنحنـح الكولونيل وينظـر إلي سـاعـة يده ثم يـرفع الجلسة.

فى خـلال الجلسـات الأخـري أدلى كوهين بأسـماء بعض رجـال السـيـاسـة والنسـاء والعسكريين، والموظفين الذين كان على اتصـال مطرد بهم، وقـال إنه زار ثلاث مرات المراكز السورية الأمامية على حدود إسـرائيل، خلف القنيطرة، كما أنه شاهد بعض مناورات الجيش السورى!

كان من بين الأشـخاص الذين عاشـرهـم كوهين مـهاجـر سـورى مسـيحى اسمه جورج سيف وكان مقيمـا فى الأرجنتين قبل عودته إلى سـوريا، حيث استخدم فى راديو دمشق ويقول كوهين:

كانوا حدثونى عن سيف قبل سفرى إلى سوريا وكان مفروضاً أن أتصل به بعد مقابلتى لكمـال الحشان ابن الصـحفى العربى المقيم فى بيونيس إيرس، ولما تقدمت إلى سيف استقبلنى بحرارة قائلا: أهلا وسهلا ثم تقابلنا وتزاورنا كـثـيـراً بعـد ذلك، وكنت أذهب إلى مكتـبـه فى وزارة الإعـلام وكـان يـزودنى بمختلف الأخبار ويعطينى معلومات عن الحالة السياسية فى البـلاد ويتركنى أتصفح التقـارير السـرية التى كان يتلقـاها، وذات يوم بينمـا كنت جـالسـاً أمـام مكتبه، دخل علينا أحـد رؤسـاء الأقسـام فجـأة، وأخذ يلوم سـيف بعنف، لأنه ترك شـخصـا غـريبـا يطلع على ملفـاته، فـأجـابه سـيف بأن الزائر مـا هو إلا صديق قديم جداً وعلى كل حـال فإنه لا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية.. وقد واصلنا مقابلاتنا بعد ذلك ولكننا كنا أكثـر حرصـاً، واستمـر فى موافـاتى بمعلومات مهمة!

واتضح أن جورج سيف كان من أكثر المرشـدين قيمةً بالنسبة لكوهين الذى تعرف عن طريقه بالملازم عدنان الجبلى وبالأستـاذ خورى المحامى السـورى وكان كوهين يحصل منهم جـمـيـعـا على أدق البـيـانات عن الحيـاة السـيـاسـيـة السورية.

وقـد اشـتـبـهت المحكمـة فى أن يكون سـيف هـذا هو السـاعـد الأيمن للجاسوس الاسرائيلى ولكن لم يثبت ذلك بشكل مؤكد!

بواسطته، علم كوهين أن «سامى الجندى» وزير الاستعلامات قد تقرر نفيه إلى باريس بصفة وزير مفوض.. وأن الحكومة الجزائرية قد رفضت مقابلة

ميشيل عفلق، الأب الروحى للبعث وهو الخبر الذى أعلنته الإذاعة الاسرائيلية قبل أن يعرفه العالم العربى.. وأن رئيس الوزراء السورى صلاح البيطار على وشك الاستقالة.. وأن الكولونيل زايد العريضى قائد منطقة الحدود الغربية قد اعتقل ثم نفى إلى أسبانيا.

من ناحية أخرى كان كوهين يوطد تدريجياً مركزه الشخصى فى حزب البعث حتى صار من قادته العقائديين، كان يدير أحد أقسامه فى دمشق، وبالتالي كان على علم بما يحدث فيه من المناورات والاختلافات الأيديولوجية أو الشخصية ومن المؤامرات، وعلاوة على ذلك كان يدير إحدى إذاعات راديو دمشق وهدفها تقديم حزب البعث إلى الرأى العام الأجنبى كحزب محترم وتقدمى وعن طريق هذه الاذاعة كان يبلغ معلوماته السرية إلى قسم الاستعلامات الإسرائيلى الذى كان يذيعها فى بعض الأحيان قبل أن يعلم بها السوريون أنفسهم!

ولكن جورج سيف أصر بعناد - خلال المحاكمة ورغم إلحاح الكولونيل صلاح الدالى - على تأكيده أنه لم يشتبه أبداً طوال مباشرته لكمال أمين ثابت بأنه جاسوس إسرائيلى، بل كان يعتقد أن كمال هو عربى ثرى من الأرجنتين عاد إلى وطنه، غير أنه اعترف بأنه من كثرة تردده على منزل كمال قد لاحظ أن هذا الأخير يتعرف على زائريه من طريقة دقهم جرس الباب!...

أما إيلى كوهين فقد أقر بأنه عندما سافر إلى الأرجنتين بغرض تأسيس فرع لحزب البعث فى بيونيس إيرس والحصول على تبرعات للحزب - تلقى خطابا من جورج سيف يسأله فيه عما إذا كان مستعداً لتسليمه مفتاح شقته، فقام الكولونيل الدالى بسؤال سيف عن سبب طلبه هذا:

- كنت أريد استعمال الشقة لمقابلة صديقات دون علم زوجتى!
- ألم يكن لتحل محل كوهين فى إرسال المعلومات إلى إسرائيل؟
- أبدا يا سيدى الرئيس.

ثم يوجه صلاح الدالى سؤاله إلى كوهين:

ألم تخش، عند إعارة شقتك إلى سيف، أن يكتشف أجهزتك ويبلغ عنك؟

كنت أثق فى سيف يا سيدى الرئيس وأعتقد أنه لن يبلغ عنى حتى لو

اكتشف أننى جاسوس، وفى الواقع كثيرا ما كنت أسلمه مفتاح شقتى، وكان يأتى فيها مع صديقات، أو مع من يريد، فقد كان بيننا نوع من الاتفاق، وإذا ما تغيبت كنت أترك المفتاح فى صندوق الخطابات!

وتستمر المحكمة وتذكر فيها المهام المختلفة التى كلف بها كوهين فى دمشق الواحدة بعد الأخرى وكانت احداها تخص البحث عن مجرمى حرب نازيين، وفيها وضحت المساعدة الثمينة التى قدمها مجيد شيخ الأرض إلى كوهين ومجيد هذا هو الذى كان (عند المرور من نقطة الحدود السورية وحينما كان كوهين يخشى اكتشاف أجهزته) قد تظاهر بعناق الموظف المندوب ليدس فى جيبه مرتبة صغيرة من أوراق البنكنوت (حوالى ٧٠٠ فرنك فرنسي)!

ومجيد هذا كان تاجراً سورياً عمره خمسة وخمسون عاما، وكان قد تزوج بمصرية يهودية، ولكن حياة الزوجية الهادئة لم تجعله ساكناً بل استمر مغامراً، كان قد لجأ إلى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية واتصل هناك بعدة أشخاص من الأوساط المختلفة.. وكان فى سيول أثناء حرب كوريا.. وكان معتمداً من الأمم المتحدة لمهمة ما.. ثم أقام فى الأرجنتين.. وأخيراً عاد إلى سوريا حيث كان يتولى أعمالاً تجارية مختلفة ولكنه كان يحتفظ بعلاقة وثيقة مع جميع معارفه، وبما أن كوهين كان قد كلف بالبحث عن أحد النازيين اسمه روسلى الذى ذكر دوره فى قضية إيخمان والذى كانوا يعتقدون بوجوده فى دمشق، فقد استعان بمجيد وتمكن من الوصول إلى منزل مجرم الحرب روسلى!

هنا تنقصنا التفاصيل، إذ يكاد يكون من المستحيل الحصول على أقل دليل على نشاط المخابرات الإسرائيلية فى هذا الصدد، لأنها كانت تستعين للقيام بمثل هذه المهام بعملاء متخصصين فى متابعة وكشف هؤلاء الأشخاص إلى أقصى درجة، إن كثيراً من هؤلاء الألمان الذين اختفوا، وجاهدوا بقوة اليأس حتى صاروا من الأثرياء، كانوا يعيشون باستمرار فى حذر ويحيطون أنفسهم فى جميع تحركاتهم بحرسهم الخاص، وكثيرا ما لجأ بعضهم إلى جراحة التجميل لإخفاء معالمهم، وأغلبهم كانوا يختبئون فى جهات نائية من البلاد التى لجأوا إليها، فى البلاد العربية يوجد كثير منهم قد أسلموا وهم يعيشون فى وسط المواطنين المسلمين الذين لا يشتبهون فيهم وغيرهم لجأوا إلى بعض

الأديرة حيث لا يجهل أصحابها دائما حقيقة شخصيتهم، إذن فلم يكن روسلى هو النازى الوحيد الذي لجأ إلى الشرق الأدنى، غير خاف أن كثيرين من جنود النازى ومن أعضاء الجستابو كانوا موجودين فى بعض المصالح الحكومية فى القاهرة ودمشق وبغداد خاصة، أن خبرتهم فى التنظيمات البوليسية ودقتهم فى تنفيذ المهام التي يكلفون بها تجعل معاونتهم قيمة جداً، وعلى كل فإن قليلا جداً من الناس هم الذين يعرفون حقيقتهم وهذا ما يفسر عدم اهتمام محكمة دمشق بتركيز الضوء على هذه الناحية من القضية!

الكولونيل صلاح الدالى يسأل مجيد شيخ الأرض؟

- كم من المرات قمت بتوصيل كوهين عند دوسلى؟

- لا أذكر حتى أنى ذهبت أبداً مع كوهين عند هذا الرجل؟

- ألا تتذكر حقيقة؟ أم تظن أنه لم يعد فى وسعك أن تتذكر؟

- افتكر أنى لا أتذكر على الإطلاق يا سيدى الرئيس.

- يمكن تكون وصلت كوهين عند هذا الألمانى الذى كان أيضا جاسوسا؟

- جاسوس؟ يا سيدى الرئيس.. لا أعلم أبداً انه كان جاسوسا.

- وحكاية سبرنجر؟ هه، ألا تعلم عنها شيئا كذلك؟

- هذا؟ آه.. كان ألمانيا اعتاد الحضور بانتظام إلى دمشق وكان ينزل فى فندق الأمويين، وقد عرفته فى نادى الشرق، كان يدعى أنه تاجر يا سيدى الرئيس، ولكنى لم أصدقه أبداً، كنت أشك فى أنه ينتمى إلى «اليد الحمراء»!

- أمر غريب، أنك اشتبهت فى سبرنجر ولكنك لم تشتبه فى كوهين؟!

- أقول لك الحق يا سيدى الرئيس، إن كوهين كان يشعرنى دائماً بأنه رجل بسيط يهتم بأعمال واضحة جداً، فى حين أن سبرنجر كان عنده دائما ألف حاجة فى رأسه ومشغوليات عديدة محيرة!

- كوهين رجل بسيط، هه، ولماذا لم تبلغ أحداً أنك تشتبه فى سبرنجر؟ كيف أنك محشور دائما مع جواسيس؟ أكنت تجهل أن سبرنجر كان متهما بالتجسس ولكنه هرب؟ ولم تعاشر الجواسيس يا مجيد؟ لماذا كنت على اتصال وثيق بكوهين وروسلى؟ ألم تكن تعلم أن روسلى جاسوس أيضا؟ قل.

- يا سيدى الرئيس، كيف كان يمكننى أن أعلم أنهم كلهم جواسيس؟

- اخرس يا مجرم، أنا الوحيد الذى يسأل أسئلة، لماذا وصلت كوهين عند روسلى؟

- ولكن يا سيدى الرئيس، لم أوصله عند روسلى.

- طيب، طيب، سترى يا مجيد وأنت يا كوهين، ماذا تقول؟ هه.. احك لنا عن علاقتك بروسلى؟

- ذهبت عند روسلى مع مجيد يا سيدى الرئيس.

- ارفع صوتك يا كوهين حتى نسمعك، أين تفتكر نفسك؟ فى مدرسة؟

- إنى تحدثت مع مجيد عن روسلى الذى كان من معاونى إيخمان، وذهبت مع مجيد فى سيارته حتى كوبرى نبق وهناك أشار إلى المبنى الذى كان يقطن فيه روسلى مع زوجته، وذهبت عندهما ومكثت حوالى عشرين دقيقة.

- أوصف لنا المنزل.

- المبنى بشارع شهبور، الثالث أوالرابع بعد البنك المركزى وأمامه حديقة كبيرة.

وفجأة ينهض مجيد شيخ الأرض ويصرخ:

- أنت تكذب يا كوهين، أنت تحلم!

- إنه يتصور.. أليس كذلك يا مجيد؟ اخرس يا غشاش، يا نصاب!

- لكن يا سيدى الرئيس.. لا، لا، لا.

- اعترف أنك وصلت كوهين عند روسلى.

- لا يا سيدى الرئيس، كل هذا كذب!

- أنت الكذاب، احترم المحكمة التى تمثل أمامها.

- لا أعرف شيئا أعتقد أنكم مخطئون، لا أعلم.

- لنفرض أنك لم تصحب كوهين، ولكن لماذا وما كان غرضك من تمكين كوهين من الاتصال بروسلى؟ وأين تمت أول مقابلة بينكم أنتم الثلاثة؟

- لا أتذكر شيئا.

- هل كنت تعلم من هو روسلى؟

- علمت بمحض الصدفة أنه كان ألمانيًا وأنه اشتغل أثناء الحرب فى قسم مناهض لليهودية.

- ولكنك كنت تجهل أنه جاسوس؟

- أقسم لك يا سيدى الرئيس بأنى لم أكن أعلم ذلك.

لم ينته بهذا الشكل استجواب مجيد شيخ الأرض فى هذه القضية التى اشتملت على أسماء ومسائل أخرى عديدة تتداخل كلها فى المحاولة الدائمة لاكتشاف جواسيس ألمان ونازيين سابقين، وجواسيس ألمان آخرين يعملون لحساب إسرائيل، وتجار سلاح ومهربين سواء إلى الجزائر فيما مضى أو إلى اليمن أو غيرهما.. علاوة على النضال السرى بين بعض أقسام التجسس الأوروبية والأمريكية فى سوريا لضمان تصريف تجارة مربحة أو لإحلال نظام محل آخر، فكلها ظلال راقصة فى «باليه» تشترك فيه المخابرات الأمريكية والانجليزية وغيرهما من مراكز الاستعلامات السرية لمختلف الدول.

ولكن قضية كوهين لا تهمنا فى هذه الرواية إلا بدرجة ارتباطها مباشرة بجهاز الاستخبارات الإسرائيلى، الكولونيل صلاح الدالى وسط هذه المسائل المتشابكة يستجوب ويهدد ويتميز غيظا ثم يلين ويتلطف، ويعود فينفعل ويهدد من جديد ويدق بقبضة يده ويصرخ.. إنه فى بعض الأحيان كان يتمنى لو أنه لم يكن فى هذا المكان.. ومع ذلك فإن الصحافة الحكومية لا تكف عن امتداح القاضى الذى يدير المناقشات كلما توسع فى القضية، والكولونيل يفرح ويفخر بهذا المديح : فمن المحتمل أن تكون النتيجة ترقيته إلى مركز مهم وهادئ فى وزارة الدفاع.. جنرال صلاح الدالى أركان حرب خاصة، اهتمام وتملق من حوله.. أما الآن فهو يقوم بجميع وظائف المحاكمة: نيابة عامة، محقق، نائب أحكام، قاضى الكرسى، رئيس المحكمة..!

- هل سمعت باسم فون انتكا؟

- نعم يا سيدى الرئيس، كان مدير القسم العربى فى وزارة الخارجية الألمانية أيام حكم هتلر، وأعلم أنه كان قد سافر إلى الرياض منذ سنتين أو

ثلاث وقال للصحافة إنه قد عين مستشاراً سياسياً فى المملكة العربية السعودية.

- هل تجهل أنه كان موالياً لليهود لأقصى حد وأنه يعد الحرب كلما كانت تثار مشكلة يهودية أمام الرأى العام، كان فون أنتكا يتدخل دائماً لصالح اليهود؟

- هذا ممكن، ولكن قبل نهاية الحرب لم يكن أى إنسان يمكنه أن يتصور مثل هذا التصرف.

- طيب.. كفى فلنعد إلى كوهين وروسلى، قل لى يا كوهين أليس صحيحا أن مجيد أوصلك إلى بيت روسلى لأنك كنت تلقيت رسالة من رؤسائك فى إسرائيل تأمرك بموافاتهم بتشبيه روسلى؟ قل: هل تلقيت مثل هذه التعليمات؟

- تلقيت برقية بالفعل يا سيدى الرئيس.

- متى؟

- أثناء قضية إيخمان.

- بالمناسبة يا كوهين، ماذا كانت خطة إيخمان؟

-إيخمان كان نازياً عدواً للشعب اليهودى، إنه أعدم ملايين من اليهود وقبضوا عليه وأحضروه إلى إسرائيل لمحاكمته فى مواجهة العالم، وبحثوا أيضا عن معاونيه.. ولكن ليس كلهم بل أكثرهم أهمية يا سيدى الرئيس، وكنت مكلفاً بمعرفة من هم الألمان الموجودون فى سوريا وتحدثت عن ذلك إلي مجيد.

- إنه يكذب وكذاب، إنه يكذب، آه يا كذاب.. إنى أتوسل إليك أيها القاضى المحترم، إذا كانت هذه المحكمة تريد أن تجبر كوهين على الاعتراف فإنى لا أريد أن أكون ضحية إتهامات ظالمة.

- اطمئن يا كلب.. إنك ستعامل بالعدل!

وانتقل الاستجواب إلى موضوع المعلومات الخاصة بتهريب أسلحة إلى الجزائر واليد الحمراء، ويغضب الكولونيل الدالى ويندفع فى تعليق عنيف ضد الخونة والعملاء الذين باعوا أرواحهم لشياطين الصهيونية والاستعمار، ثم تعود المحاكمة إلى نقطة انطلاقها، ويطلب الرئيس من إيلى أن يدلى

بأسماء العسكريين السوريين الذين اتصل بهم، وعلى يسار الرئيس يجلس مساعده «سليم حاتوم» الذى كان كوهين يوافيه بالبنات الصغيرات اللاتى كان حاتوم يشعر نحوهن بميل خاص!.. ويدير كوهين نظره فيمن حوله ويذكر الأسماء بهدوء:

- «الملازم خليل زفور، الملازم سليمان الراجورة، وكلاهما من وزارة الدفاع، والملازم المتقاعد عبدالعال سعيد والضابطان محمد دلون والمعز قومندان مطار المزة...»!

ويذكر كوهين بعض أسماء أخرى، والقضاة العسكريون يعلمون جيداً أنه يعرف أكثر من ذلك بكثير، ولكنهم لا يدققون، إذ قد يصل الأمر إلى بعض كبار الضباط المهمين وحتى إلى اسم الجنرال الحافظ!

- «ما هى المصالح الحكومية وغيرها من مكاتب الدولة التى كنت تدخل منها؟»

- «وزارة الاستعلامات، مكاتب الإذاعة الأهلية، البنك المركزى، وزارة الخارجية، وزارة الدفاع، قمت بثلاث مرات بزيارة «الحما» فى أركان حرب الحدود و«بعل زبدى» و«بلودان» وكنت أعرف الملازم «معزى» ابن أخ الجنرال عبدالكريم زهرالدين، وكنت صديق «ميشيل صعب» أحد المهندسين المكلفين بأعمال تحويل مجرى روافد نهر الأردن».

كانت المعلومات التى يحصل عليها من هذا الأخير ذات أهمية خاصة.

ومن المعلوم أن مشروع تحويل مياه نهر الأردن كانت من نتائجه المنتظرة تجفيف مجراه ومنع وصول مياهه إلى «النقب» عن طريق خط المواسير الأهلى «دوفيل هاماين ها أرتزى» إن مشكلة المياه بالنسبة لإسرائيل مشكلة «حيوية» وقد كررت حكومتها بإصرار أنها تعتبر تنفيذ مثل هذا المشروع «كازوس بيللى» «أى موضوع حرب» شأنه شأن إغلاق مضيق «تيران»!

ويرغب الآن الكولونيل صلاح الدالى فى معرفة الطريقة التى كان كوهين يستعملها فى إيصال معلوماته إلى إسرائيل.

- باللاسلكى يا سيدى الرئيس.

- «ماذا كانت تشمل التعليمات العامة التى لديك بخصوص سوريا»؟

ـ موافاتهم ببيانات دقيقة على قدر الإمكان عن الحالة السياسية يا سيدى الرئيس».

ـ «اشرح ذلك».

ـ فى يونيه ١٩٦٢ سافرت إلى إسرائيل عن طريق بيروت وأوروبا، وأبلغت رؤسائى بعلاقات الصداقة التى كانت تربطنى بالضابط معزى زهرالدين فأمرونى بتنمية هذه الصداقة، ولما عين قائداً لمنطقة حلب العسكرية ذهبت لزيارته، وكان هو كذلك فى كل زياراته إلى دمشق ينزل فى شقتى، وقد لاحظ عندى مرة آلة راديو مزودة «بهوائى» لم يسبق أن رأى مثله، وسألنى إن كان هذا نموذجاً جديداً، فقلت له إن هذا الهوائى يسمح لى بالتقاط إذاعة «بيونيس إيرس»!

ـ «وماذا كان موقفه»؟

ـ «اكتفى بأن هز رأسه يا سيدى الرئيس».

ـ «كمل يا كوهين».

ـ «حصلت على معلومات ممتازة عندما اصطحبنى معزى فى إحدى جولاته فى الحما، وكان يرينى أهم الاستحكامات والأجهزة المضادة للمدرعات وشبكة الخنادق تحت الأرض، وقد أبلغت كل التفاصيل إلى إسرائيل، مرة أخرى كنت فى مكتبه فرأيت خريطة أركان حرب لمنطقة القنيطرة وأخذ يشرح لى ويدلنى على المرتفعات المرقمة التى كانت ستنشأ عليها استحكامات جديدة»!!

كان «معزى» مصدر معلومات لا ينضب!.. وعمه ـ الذى كان وقتئذٍ رئيس أركان الجيش ـ وقد اشترك بصفة آلية تقريباً فى كل المؤامرات، فقد كان من التقاليد الجارية فى سوريا ـ من بعد جلاء الفرنسيين ـ أن يشترك القواد العسكريون فى جميع المؤامرات، الجنرال حسنى الزعيم، يطرده الجنرالان الشيشكلى والحناوى ويقوم الثالث بقتل الأول ولكنه يضطر إلى الفرار إلى لبنان لأن الثانى استولى على الحكم، ثم يقوم الجيش بالإيعاز للاندماج مع مصر إلى أن يقوم هو نفسه بوضع نهاية لهذا الاتحاد، ويلى ذلك الانقلاب الذى تم فى ٨ مارس ١٩٦٣ وسلم الحكم لحزب البعث، ثم تأتى المؤامرات

التى أوصلت الجنرال أمين الحافظ إلى كرسى الرئاسة، وهذا الأخير يموج بين مجلس الثورة ومجلس الكولونيلات فى شبه مطاردة من انقسامات وشكوك وفضائح وفصل.... فتارة، الطيران يساند والمدرعات تناهض، وتارة أخرى العكس بالعكس، وفى النهاية يوم ٢٣ فبراير ١٩٦٦ تم التخلص من القادة التقليديين لحزب البعث ومن جميع ذوى السلطة المدنيين وحل محلهم الفرع المحلى للحزب والمكون فقط من ضباط متشددين، وكان الكولونيل «سليم حاتوم» قد اشترك بشكل بارز فى الانقلابين الأخيرين، واضطرت هذه السلطة اليسارية المتطرفة للالتجاء إلى مساندة الفرق البروليتارية بقيادة «خالد الجندى» التى أخمدت محاولتين كانت إحداهما فى سبتمبر ١٩٦٦ بقيادة نفس الكولونيل حاتوم، وقد عاد هذا الأخير من الأردن، التى كان قد لجأ إليها، فى يونية ١٩٦٧ بعد نشوب الحرب، ولكنه قبض عليه هو والكولونيل جمعة الياور السابق للجنرال الحافظ، واتهم بإعداد انقلاب جديد لحساب الولايات المتحدة وحوكم أمام محكمة عسكرية استثنائية وأعدم بعد اثنى عشر يوماً رمياً بالرصاص!

وتمكن «معزى زهرالدين» بهذا الشكل من أن يطلع كوهين على كل المشاكل والحزازات التى نشبت فى دوائر السلطة العليا.

اعترف «معزى» فى المحكمة بأن كوهين صحبه فى إحدى جولاته إلى حلب وأنه التقط عدة صور فوتوغرافية فى الطريق، كما اعترف أيضاً أنه نزل عدة مرات فى شقة كوهين بدمشق ورآه مرة فى الصباح، يستمع إلى إذاعة «صوت إسرائيل» ولكنه لم يُعِرْ ذلك أى اهتمام؛ إذ كان كثيرون من العرب يستمعون إلى صوت إسرائيل، وروى أيضاً أنه رافق كوهين إلى الحما فى منطقة الحدود، واعترف أن كوهين قد رأى ودرس معه الخريطة المفصلة لمنطقة القنيطرة وأنه سأله عدة أسئلة والتقط تحت نظره عدة صور فوتوغرافية للمنطقة بحجة أنه ينوى شراء قطع من الأرض فيها لاستثمارها، وأنه لم يشتبه فيه فى أى لحظة.

- «لم تشتبه فى شىء»؟ والله، إن هذا لا يصدق، ألم يخامرك أى شك؟ هه.. كنت تراه يعيش فى بذخ، ينفق بدون حساب، يقيم حفلات واستقبالات وينظم الليالى الحمراء لك ولأصدقائك، ألم تستعجب لكل ذلك؟هه.. يا الله

ارحمنا، ولم تستغرب كذلك أنه يدفع ثروة فى شقة لم يستعمل منها إلا غرفة واحدة؟ أنت ستجعلنى أجن»!

كان «معزى» هو نفسه الذى صرح بأن خمساً من الغرف السبع فى الشقة الفخمة كانت تبقى دون استعمال إلا بمناسبة الاستقبالات، وكذلك إن كوهين - رغم تبذيره فى مصروفه - لم يستخدم فى بيته أية شغالة، كان هو وحده الذى يقوم بجميع أعمال البيت من طبخ وغسيل الملابس وأدوات الطعام ويعنى بنفسه بصيانة هذه الشقة الواسعة.

- «إنك لم تستغرب لكل هذا؟ ولكن هذا جنون شيطانى»!

- «لا يا سيدى الرئيس، إنى لم أشتبه فى شىء».

- «لا؟ حقيقة»؟

- «لا، وهل يمكننى يا سيدى الرئيس أن أعترف لك بشىء»؟

- «إنك هنا لذلك يا معزى، تكلم إذن».

- «إننى ليس عندى قوة ملاحظة».

الكولونيل صلاح الدالى يتنهد طويلا وينظر الى جميع المتهمين واحدا بعد الآخر ويركز نظره خاصة على كوهين الذى لم يتحرك.

كان كوهين منذ شهر مارس ١٩٦٣ فى مركز يسمح له جيدا بمعرفة كل ما يجرى تحضيره، كان له مكانة فى «البعث» وكان يمكنه أن يتوسط من أجل أصدقائه، وفى يوم من الايام لعب دور الرجل الذى لا يمكن شراء ذمته رغم قدرته على عمل أى شىء؛ كانوا قد عرضوا عليه رشوة ألف دولار لتسوية موضوع الافراج عن بعض الأملاك العقارية ولكنه رفض بغضب وكبرياء قائلا: إن رجال البعث هم روح الثورة السورية وإن عهد الرشوة قد زال! وبهذا الشكل تمكن من عرض فكرة تأسيس فرع للحزب فى الخارج مما سوف يسمح له بالسفر دون إثارة الشكوك وكان يتردد على إسرائيل كل ستة اشهر ليزور عائلته بعد أن يعرج على اوروبا حيث كان «سالينجر» يزوده بالمال اللازم لتأدية مهمته.

كانت عودته إلى إسرائيل تسعده، حياته المزدوجة يعتبرها كجزء من مهمته؛ فهو رجل بسيط يكرس نفسه لعائلته طوال مدة اقامته معها، كان له

والدة وخمسة أخوة وشقيقتان وزوجته نادية كانت قد انجبت له بنتين وولدا وهذا الاخير كان عمره بضعة ايام فقط عندما تركه والده فى آخر سفر له.

بعكس الشقة الفخمة التى كان يقطنها فى دمشق كان سكنه فى «باش يام» - وهى قرية صغيرة قريبة من تل أبيب - متواضعا: مجرد غرفتين لم يكتمل تأثيثهما بعد وكانت عائلته تتسلم شهريا مبلغ ستمائة فرنك!

لما أعلن نبأ القبض على كوهين فى دمشق بذلت نادية مجهودا كبيرا لتضمن له الدفاع عن قضية عادلة فسافرت الى باريس مع أحد اشقائه بأمل تدخل بعض الأوساط ذات النفوذ وحاولت مقابلة السفير السورى ليسمح لها بأن تكون بجوار زوجها اثناء محاكمته ولكن كل المساعى باءت بالفشل رغم سفرياتها العديدة إلى باريس ولم يسمح لأحد بأن يذهب إلى دمشق لمساعدة إيلى كوهين فى قضيته وفى هذا الصدد يقول الاستاذ جاك مرسييه لاحد أصدقائه لدى مروره ببيروت فى آخر مرة: «كنت آمل أن اتمكن من إنقاذ كوهين إن هذا يبدو من الجنون إن الصراعات الداخلية فى حزب البعث كان فيها ما يمكننى من المناورة ولكن «الحافظ» ومن معه لم يقبلوا أن تكون قضيته علنية كانوا يريدون أن يموت كوهين دون أن يقول اشياء يمكن التحقق من صحتها!

وكان من بين أصدقاء كمال أمين ثابت الذين كانوا يشتركون فى الحفلات الليلية اللذيذة التى كان يقيمها أحد كبار الضباط «الكولونيل» سليم حاتوم فقد اعتاد أن يتلاقى مع خليلته فى شقة كوهين ومن المعلوم أن سليم - بقواته المدرعة - قد ساعد الجنرال امين الحافظ على تولى الحكم وكانت هناك اشاعة تدور فى دمشق: بان حاتوم وكوهين قد اتفقا على أن يقول هذا الاخير إنه لا يعرف الكولونيل حاتوم ومقابل ذلك كان حاتوم يضمن لكوهين أن يحصل على عفو الجنرال الحافظ.. وهذه الاشاعة تلقى بعض النور على الحوار الآتى فى المحاكمة:

- راديو بغداد يؤكد أن سليم حاتوم كان من بين دائرة اصدقائك هل هذا حقيقى يا كوهين؟

- هذه أول مرة أرى فيها الضابط سليم حاتوم ياسيدى الرئيس.

- إذن هم اصبحوا مجانين فى بغداد؟!

ـ بدون شك أو قد يكونون من العملاء الاستفزاريين!

ـ يعنى عملاء مثلك يا كوين؟ هه..!

ـ ليس عندى أى فكرة ياسيدى الرئيس أما أنا فقد كنت موفداً فى مهمة!

موفدا فى مهمة؟ من يسمعك ياكوهين يظن أنك كنت تؤدى واجبا أما الآخرون فهم عملاء مأجورون مرتزقون هه أنت لا تقول شيئاً.. عندك صديق طيب ياكوهين إنه هاشم أبو زهار الكاتب فى جريدة «المحرر» إن هذا الصحفى يدافع عنك.. وليس هو الوحيد، يوجد أيضا كمال مروى صاحب جريدة الحياة إنك لا تخلو من المدافعين كما أرى.. هؤلاء الكتبة مأجورون من إسرائيل للدفاع عنك والقذف فينا، إن هذا المال الذى تصرفه حكومتك للدفاع عنك ياكوهين هذا المال هو ملكنا إنه مال البترول الذى يدفع إلى الاستعماريين وإسرائيل. جريدة الحياة تعنى أن كل ضباطنا من اصدقائك!

ـ ولكن ياسيدى الرئيس إنى لم اعرف إلا أربعة ضباط!

إن هذه القضية الغريبة افتتحت فى ٢٨ فبراير ١٩٦٥ وانتهت فى ١٩ مارس وعشرات من الشهود بين مدنيين وعسكريين أدلوا بشهاداتهم فيها وأخيراً انعقدت المحكمة العسكرية فى أول مايو وأعلنت الحكم التالى:

ـ بالنظر إلى الوقائع والأدلة المقدمة للمحكمة

وبالنظر إلى اقتناعنا المؤيد بالشهادات تقر المحكمة بأن المتهم آليا هو بن شاؤول كوهين الذى انتحل اسم كمال أمين ثابت ودخل منطقة «العال» وهى منطقة عسكرية محظورة بغية الحصول على معلومات مفيدة للعدو وبالنظر إلى أن الدخول بدون تصريح فى منطقة عسكرية يعاقب عليه بالاعدام تطبيقا لنص الفقرتين ١٥٨ و١٥٩ من القانون العسكرى وبالنظر إلى أن الحصول على معلومات عسكرية من المحتمل أن تكون مفيدة للعدو والتى يجب ان تبقى سرية لضمان سلامة الدولة يعاقب عليها بالاعدام تطبيقا لنصوص الفقرات ٢٧١ و٢٧٢ و٢٧٤ من القانون العسكرى وبموجب الفقرات السابق ذكرها من القانون العسكرى وبموجب الأمر الدستورى رقم ٦ بتاريخ ٧ يناير ١٩٦٥ المعدل بالامر الدستورى رقم ٣٣ بتاريخ ٩ فبراير ١٩٦٥ قررت المحكم أن المتهم الياهو بن شاؤول كوهين وعمره أربعون سنة والمقيم فى تل ابيب بشارع بات يام فى

فلسطين المحتلة مذنب بالنسبة لكافة أوجه الاتهام وتحكم المحكمة باعدامه شنقا وتم النطق بهذا الحكم حضوريا ويجب تأييده من رئيس المجلس الرئاسى وصدر اليوم أول مايو سنة ١٩٦٥ فى دمشق وقرىء علنا إمضاء «كولونيل صلاح الدالى رئيس المحكمة العسكرية الخاصة».

ولم يعلن الحكم الا بعد بضعة أيام من صدوره فى يوم أول مايو لأن السلطات السورية كانت تريد تأخير اذاعته بقدر الإمكان لتترك اقل وقت ممكن للتوسط صحيح ان الصحافة والراديو الإسرائيليين كانا قد امتنعا كلية عن الإشارة إلى القبض على إيلى كوهين ومحاكمته ولكن باقى العالم كان مهتما بمأساة مصيره!

توسط البابا بول السادس مرتين لدى الرئيس السورى، كما توسط مرتين الرئيس الإيطالى ساراجات بذل كثيراً من المساعى من أمثال ادجارفور، نقابات عمالية عديدة، حائزين على جائزة نوبل، ديفنباكر لورداراسل لجنة حقوق الانسان، ملكة بلجيكا الوالدة، وكثير من غيرهم من الشخصيات وحتى سفير الارجنتين فى دمشق الذى لاحظ أن كوهين كان قد حصل على الجنسية الارجنتينية تحت اسم كمال أمين ثابت!

فى الواقع منذ ساعة اعلام الحكم كان مصير إيلى كوهين بين يدى الجنرال الحافظ رئيس مجلس الثورة ورئيس الدولة السورية وهو الوحيد الذى كان يمكنه تخفيف حكم الاعدام الذى يقع تحت طائلته كوهين.

ومن المعلوم أن الظروف كانت قد جمعت بينهما: فى بيونيس إيرس ثم فى قصة المعطف الفرو وفى أثناء التحقيق حيث كان الجنرال الحافظ قد أراد استجوابه بنفسه، ومن الجدير بالذكر أيضا أنه عندما سافر الجنرال الحافظ إلى باريس للعلاج، كان الجراح اليهودى الشهير الدكتور «كيس» هو الذى أجرى له العملية الجراحية الدقيقة التى نجحت بحيث رأى الرئيس السورى أن يعبر عن شكره للجراح اليهودى. ولما حكم على كوهين بالإعدام، حرر البررفيسور «كيس» خطابا إلى الجنرال الحافظ ليطلب منه العفو عن إيلى كوهين، ذاكرا فى رسالته أنه يتجه إليه بدوره فى مسألة حياة أوموت!

إن العواطف لا يقام لها وزن عند دوافع الدولة العليا، وعلاوة على ذلك فإن من المحتمل أن يكون الحافظ نفسه قد تورط لدرجة ما فى إحدى

الفضائح، على كل حال فإن الحافظ أصم أذنيه لكل الالتماسات والضغوط ولزم الصمت الكامل.. وقد لوحظ وقتئذٍ أنه كان يتحاشى الظهور فى الاجتماعات وانه ضاعف عدد حرسه الخاص، وكان المسعى الذى قام به الكردينال «بلاسيوس» الأرجنتينى من أكثر المساعى المثيرة للعطف، فقد وجه هذا الأسقف العجوز رجاءه إلى السلطات السورية بطلب العفو، ذاكراً فى رسالته المؤثرة أنه يعبر فيها عن وصيته الأخيرة!.. ولكن دون جدوى!.. كما قام بعض الكرادلة العرب بتوجيه نداء أيدته الجالية السورية فى نيويورك!

وفى هذه الأثناء كان يقوم فى إسرائيل سعى واسع جداً تحت ستار عدم التدخل الرسمى، لتأمين محاكمة عادلة أولا، ثم لمحاولة العفو عن كوهين، ويقول الأستاذ مرسييه الذى قبل القيام بالتوسط، فى إطار هذا المسعى: إن إسرائيل كانت مستعدة لأى شىء فى سبيل إنقاذ إيلى كوهين، ولا أظن أن أى دولة بذلت أكثر منها من أجل عميل ضائع، لما ذهبت إلى دمشق للمرة الثانية والثالثة كنت أحمل كشفا بأسماء ثمانية أو عشرة سوريين ينفذون فى إسرائيل أحكاماً بالسجن لمدد تتراوح بين ثلاث سنوات وعشرين سنة لأعمال التجسس والتسلل والتخريب وقلت لوليد طالب وزير الرئاسة، وللاتاسى سكرتير رئيس الوزراء، إن إسرائيل مستعدة لتسليمهم إلى سوريا مقابل الإفراج عن كوهين، وأضفت إلى ذلك أن فى وسع سوريا الحصول على توريدات طبية وصيدلية قيمتها مليونان من الفرنكات الفرنسية ويمكن القول إن الإسرائيليين كانوا على استعدادا لأكثر من ذلك بكثير لإنقاذ عميلهم!

ولكن بعد تفكير أجاب الرجلان بما أن سوريا لا تعترف بدولة إسرائيل فلا محل للتفكير فى أى نوع من المساومة!

ومع ذلك فقد تمكن الاستاذ مرسييه من مقابلة رئيس الأمن السورى أحمد السويدانى المسئول عن القبض على كوهين والذى أظهر منتهى التصميم فى المطالبة برأسه، فقد كانت إدارته هى المعنية بهذه القضية خصوصا وأنها هى التى ظلت مخدوعة هذه المدة الطويلة، وفى حديثه مع الأستاذ مرسييه سأله بخشونة، إن لم يكن هو أيضاً عميلاً لإسرائيل، فأفهمه مرسييه أنه ليس من عادة أعضاء مهنته (المحاماة) أن تلعب مثل هذه اللعبة، بل إنه هو شخصياً كان قد دافع بكل عواطفه عن رجال من العرب!

لعبة الشطرنج المعقدة!

قد يرى البعض أن كوهين لم يكن سوى قطعة فى لعبة الشطرنج المعقدة التى تدور فى الشرق الأوسط وأنه لم يخرج من عداد النكرات إلا بمحض الصدفة وعن طريق قضية أريد لها أن تكون عبرة لمن يعتبر، ولكن الأمر ليس كذلك فإن ما قام به بلغ درجة استثنائية، ومساهمة مثله من الرجال لم تكن قليلة التأثير فى توجيه المباراة توجيها حاسمًا ومن جهة أخرى فإنه كان قطعة ذات أهمية خاصة نظرًا للمكانة التى ارتقى إليها.

وللاختصار يمكن القول إن قضية كوهين كانت تقع فى ملتقى الطرق لثلاثة نضالات سياسية يجب النظر إليها فى إطار أوسع من مجرد حالة تسلل، وعلينا أن نحاول وضعها فى مركز تشعباتها القريبة والبعيدة فى كل من السياسة الداخلية والسياسة الخارجية السوريتين، وفى المباراة المعقدة للسياسية الدولية فى الشرق الأوسط.

فلنقل إن هذه القضية برزت على شكل ثلاثة أوجه أو مظاهر: الأول هو المظهر السورى ويمكن تصويره كلعبة «بوكر» على الطريقة العربية بين ثلاثة اتجاهات: سورية، والثانى يكمن فى التكتيك المصرى الذي كان يريد استغلال القضية ضد السوريين، والثالث يتعلق بالسياسة الإسرائيلية، ويمكن الشعور بتأثير هذه الأوجه الثلاثة بمجرد النظر إلى ظروف إلقاء القبض على كوهين، لما حضر الفريق أول على عامر للتفتيش على الاستحكامات السورية على طول الحدود الاسرائيلية، كان إيلى كوهين هو المدنى الوحيد الذى انضم إلى مرافقيه!... وتقول الصحافة الموالية لعبد الناصر إن تلك الزيارة هى التى أدت إلى اكتشاف واعتقال إيلى كوهين، وتفسر ذلك بأنه من بين الصور

الفوتوغرافية العديدة التى نشرت فى هذه المناسبة، كان إيلى كوهين يظهر على إحداها بجوار الجنرال المصرى، وقد أثار ذلك اهتمام المخابرات المصرية التى أمكنها التحقق من شخصيته وأنه فى الحقيقة يهودى من الإسكندرية.. وليس هو ثابت البعثى أو السورى، فبادرت بإبلاغ ذلك إلى إدارة الأمن السورية التى قبضت على كوهين بالطريقة التى تعرفها.

إلا أن إدارة الأمن السورية كذبت هذه الرواية تكذيبا قاطعا، وأكدت أن القبض على كوهين كان من عملها هى وحدها ولم يشترك فيه المصريون بأى شكل، ويقول السوريون إنهم لاحظوا أن بعض القرارات المهمة التى كانت تتخذها السلطات السورية فى المساء أو حتى فى الليل كان راديو إسرائيل يذيعها فى صباح اليوم التالى، كما أن بعض أسرار الدولة المعروفة لعدد قليل جدا من القادة كانت تصل إلى علم اسرائيل قبل أن يطلع عليها كبار الشخصيات السورية، وقد حدث أن تقريراً سرياً قدمه الأمن العام للجامعة العربية - عبد الخالق حسونة - إلى مؤتمر القمة العربية قد أذيع نصه من راديو إسرائيل، وكان المصريون يؤكدون أنه لابد من أن يكون هناك مصدر قريب من أحد الوفود العربية يعمل لحساب إسرائيل، وأخيرا فقد لاحظ الخبراء أن قوة الطيران الإسرائيلى التى ضربت المراكز السورية فى نوفمبر ١٩٦٤ قد أصابت بدقة مذهلة جميع الأهداف السرية، فمن الواضح إذن أن لدى إسرائيل معلومات مفصلة عن جهاز الأمن السورى على طول حدودها، ألم يكن كل هذا دليلا على أن عملاء إسرائيليين تمكنوا من التسرب إلى أعلى دوائر الحكومة السورية؟ بالإضافة إلى ذلك فقد لوحظ أن راديو إسرائيل كان يذيع أخبارا عن سوريا بسرعة تدعو إلى استبعاد تبليغها عن طريق البريد مما جعل المخابرات السورية تستنتج أن عملاء إسرائيليين مقيمين فى سوريا كانوا يبلغونها باللاسلكى إلى من يهمهم الأمر فى بلادهم، فكان عليهم إذن البحث بدقة عن أى إذاعات تصدر من الأراضى السورية، وهكذا اكتشف أن إذاعة سرية تصدر كل صباح فى ساعة محددة من شمال دمشق، فلم يبق عليها إلا أن تحدد بالطريق الفنية النقطة التى تصدر منها داخل هذه المنطقة.. وهكذا توصلوا إلى شقة كمال أمين ثابت أو الجاسوس الإسرائيلي إيلى كوهين.

وهناك رواية اخرى تعزو اكتشاف كوهين إلى مجرد الصدفة، وهى أن الجيش السورى كان قد تلقى من الاتحاد السوفيتى أجهزة رادار جديدة وصدرت تعليمات الجيش بايقاف جميع الإذاعات الرسمية من دمشق فى أثناء اختبارها، غير أن كوهين الذى كان يجهل هذه التعليمات استمر فى إذاعته المعتادة أثناء ساعات المنع، وهكذا تمكن الجيش السورى من الاستدلال على نقطة صدور الاذاعة ومن ثم ألقى القبض على إيلى كوهين.. غير أن الانسان قد يتساءل كيف أن كوهين (الذى كان واسع الاطلاع على الشئون السورية) لم يكن يدرى بوصول الرادار السوفيتى والتعليمات التى صدرت بشأن تجربته!

يبدو من كل ذلك ومنذ بداية قضية كوهين أن التنافس والتوتر كانا يسودان بين البلاد العربية بشأنها، ومن الثابت أن المصريين وحلفاءهم العراقيين حاولوا طوال القضية استغلالها ضد السوريين، كانت الصحافة العربية تصف كوهين بأنه جاسوس ساحر ولما كان السوريون قد اتهموا المصريين بإذاعة بعض البيانات السرية عن الطيران السورى فقد كانت الجرائد المصرية ترد عليهم بتهكم: أى أسرار يمكن إذاعتها عن سوريا بعد كل ما قاله كوهين؟!

لاشك فى أن العلاقات بين مصر وسوريا كانت تعانى من نكسة انفصام اتحادهما، وكانت أبرز نتيجة لذلك هى المنافسة الدائمة بينهما سواء فى الاشتراكية العربية أو فى الدعاية للوحدة العربية ومناهضة الصهيونية، فمن ناحية ناصر الذى تخيل نفسه خليفة لصلاح الدين ومن الأخرى: «البعث» الذى يرى أنه هو الذي سيعيد الحياة إلى مجد العرب..!

كانت الصحافة الناصرية ويساندها الراديو العراقى بدافع العداء للبعث، تعمل جاهدة لتضخم حجم القضية وتهزأ بالقادة السوريين الجدد وتبرهن على عدم كفاءتهم فى حكم البلاد وحمايتها من الصهيوينة، انها الرغبة الواضحة فى النيل من مركز سوريا مع التشكيك فى فعالية جيشها ومخابراتها، والاستهزاء بمحاولتها الافتخار بانتصارها على المخابرات الإسرائيلية، كانت الحجج واحدة: لاثقة فى البعث؛ إذ أن الجاسوس الصهيونى كان يقابل الوزراء ويعرف أسرارهم، ثم «فساد البعث» إذ كان

الجاسوس الصيهونى ينظم الحفلات الجنسية لعدد كبير من أرقى شخصيات المجتمع البعثى، وأخيرا عدم كفاءة البعث، إذ أن الجاسوس الصهيونى لم يكتشف إلا بفضل المخابرات المصرية.. إن هذه الصحافة المعادية وهى التى ذكرت كثيراً من التفاصيل عن تسلل كوهين إلى داخل حزب حكومى عربى، كانت بذلك تزيد فى قيمة نجاح كوهين: بأنه لم يكتف بالحصول على معلومات عن القرارات التى تتخذ، بل إنه حقق الحلم الذى يحلم به كل جاسوس وهو أن يكون مركزه عند نفس المصدر الذى يتخذ هذه القرارات.

وقد تأثرت هذه القضية أيضاً بالمناورات والتقلبات العديدة للسياسة السورية، أى بالصراع الجارى بين البعثيين أنفسهم، لم تكن قضية بسيطة بل إنها قد تؤدى إلى زعزعة النظام فى دمشق، كان كوهين قد تسلل إلى داخل البعث وتبرع بمبالغ جسيمة للوطن والحزب، وتعهد بأن ينشىء خلية للحزب فى الأرجنتين حيث توجد جالية كبيرة من العرب أغلبهم من السوريين، مما كان يتيح له السفر إلى الخارج، أو بمعنى آخر أن يبقى على اتصال مباشر بالمخابرات الاسرائيلية ويتوجه لمدد قصيرة إلى اسرائيل لزيارة عائلته، وكانت الصحافة الناصرية من عدائها لحزب البعث تذعن للدواعى التى تدفع كافة صحف العالم للتنافس فى ذكر التفاصيل المشوقة، وفى هذا المجال وجدت منجماً ذهبياً: الهدايا من المجوهرات والفرو وحفلات الاستقبال التى كان يحييها كوهين فى شقته والتى كانوا يشبهونها بالليالى الحمراء الشرقية والتى كان يؤمها كبار ضباط الجيش الذين كانوا يفقدون غطرستهم عند «ملامسة» الشابات الجميلات التى اللاتى كن يستقبلنهم فى صالونات كوهين، وكان كل شىء يجرى فيها تحت سمع وبصر الحاضرين، حتى لقد قيل إن كوهين كان يلتقط صوراً فوتوغرافية فاضحة.. وكان يستعملها كسلاح للتهديد والابتزاز الأدبى ضد الضباط المتورطين.. قل لى هذا ثم ذاك وسأعطيك الصورة والنيجاتيف فكان الضباط يمتثلون وبذلك كان يحصل على تفاصيل قيمة عن تنظيم الجيش والقرارات العسكرية والخرائط وغيرها من الأسرار!

وذكرت أيضًا هذه الصحف أن مركز إيلى كوهين فى البعث كان قوياً لدرجة أنه قد دعى للاشتراك فى جولة قام بها صلاح البيطار رئيس الوزراء

السورى إلى الأردن وقبل القبض عليه ببضعة أيام كان هذا المجاهد المتحمس قد تمكن من أن يتقدم كمرشح لعضوية الإدارة العامة للحزب!

كان إيلى كوهين فى ذلك الوقت يمارس عمله مع عدو أقل صلابة مما هو الآن لم تكن سوريا قد اعتنقت بعد هذا النوع من الاشتراكية وكان يساعده أيضا جو التفكك والصراعات الداخلية بين المشتددين والأحرار من حزب البعث، كان الأحرار يرون مساندة النظام أمام العالم بأن يسمحوا بالدفاع عن كوهين وبأن تكون القضية علنية حتى لا يتهمهم الرأى العام بالفساد وعدم الكفاية، وكان المدنيون فى الحزب حيارى يرغبون فى أقصى ما يمكن من الصمت والكتمان خشية إثارة فضائح رجال الحكم، أما الاقوياء المتشددون فكان غرضهم الأساسى هو تدمير الجنرال الحافظ، وكانوا يرغبون فى قضية سرية ولكنها «رنانة» بالنسبة لمنافسيهم!

فى أوائل شهر فبراير تلقى الأستاذ مرسييه من وزير الرئاسة فى دمشق تأكيدات صريحة بأنه سيسمح للمحامين الفرنسيين مع زملائهم السوريين بمقابلة كوهين بمجرد الانتهاء من التحقيق ثم الدفاع عنه.

وكان قبل ذلك قد صدر المرسوم رقم ٦ بتاريخ ٧ يناير ١٩٦٥ بإنشاء محكمة عسكرية خاصة ينحصر اختصاصها فى القضايا المتعلقة بالأمن الداخلى للدولة، وكان الغرض منها فى الواقع هو «تخويف» التجار والبورجوازيين وغيرهم من المحتكرين والمعادين للنظام البعثي الجديد، فكانت المحكمة تنظر فى الأعمال المناهضة لتطبيق النظام الاشتراكى ومخالفة القرارات الاشتراكية وزعزعة الثقة واحتكار المواد الغذائية وتهريب الأموال السائلة.. ولكن فى ٩ فبراير امتد اختصاص المحكمة ليشمل قضايا الخيانة والجاسوسية فنظرت لأول مرة قضية اثنين من السوريين متهمين بالتجسس لصالح الولايات المتحدة، وبهذه المناسبة قامت المحكمة بتطبيق نص المادة السادسة من المرسوم رقم ٦ التى كانت تسمح لها بعدم اتباع الإجراءات الثانوية وقد فسرتها برفض وجود محام للدفاع عن المتهمين؛ إذ كانت تنص فقط على وجود القضاة من ناحية والمتهمين من الناحية الاخرى ولا نص فيها عن الاجراءات أو المحامين أو الجمهور، سوى ما قد يسمح بإذاعته عن طريق التليفزيون، وفى يوم ٢١ فبراير تمكن سكان دمشق من مشاهدة أحد

الجاسوسين مشنوقا فى ميدان السوق، أما الثانى فكان ضابطاً فى الجيش السورى. وقد أعدم رميا بالرصاص؟ وفى نفس هذا التاريخ كانت برقيات وكالات الأنباء تعلن عن قرب النظر فى قضية كوهين.

إن تقديرا خاصا كان يشهد به الحافظ لكوهين يلمس من بعيد الوجه السياسى للقضية، ويؤيد أنه كان يعلم أن كوهين قد لعب دوره حتى بعد القبض عليه، وأنه لم يبح إلا بما كان يمكن التسليم به دون خيانة، وأنه كان لايزال يحتفظ بعدة خيوط فى يده.. كان الحافظ يعلم ذلك ولكنه يحاول قطعا أن يجعل كوهين يبوح بآخر الأسرار التى يحتفظ بها، لأن سكوته بالنسبة لبعض المسائل يضمن صمته بالنسبة لغيرها، لاشك أن هذه القضية كان لها عدة وجوه سياسية، ويذكر بعضها الجنرال الحافظ فى بيانه حيث يقول: لا نزاع فى أن إيلى كوهين كان قد وصل إلى دمشق مكلفاً بمهمة الوصول إلى أهداف معينة، وقد قامت عناصر سياسية أجنبية عديدة بمتابعة ضبطه والتحقيق الذى تبعه باهتمام كبير، وكثيرون أيضا قد بذلوا الجهود لإنقاذ حياته، أشبعونا برقيات فى هذا الشأن وعرضوا علينا تعويضات قيمة ولكننا لم نتكلم واكتفينا بالابتسام لما بلغتنا الإشاعات بأن كوهين كان قد نجح فى التسلل إلى الدوائر الحكومية السورية وفى الإشاعات بأن كوهين كان قد نجح فى التسلل إلى الدوائر الحكومية السورية وفى الاتصال بقادتها!

ويفهم من هذا التصريح أن مصير إيلى كوهين كان مقرراً من قبل، فقد كان الجنرال أمين الحافظ بصيراً بمصلحته لدرجة لا تسمح له بإنقاذ حياة الجاسوس الإسرائيلى، كان يرى أن ذلك سوف يعتبر نصراً للمخابرات الإسرائيلية وهذا ما يجب تجنبه بأى ثمن، ولابد من مراعاة الرأى العام فى سوريا، إذن لابد من عزل إيلى كوهين ومنع أى اتصال بينه وبين أى شخص أجنبى يحتمل أن يصرح له ببعض التلميحات، وفوق كل ذلك كان لابد من عدم تمكين هذا الرجل المطلع على خفايا البلاد من فضح ضعف النظام السورى فى عهد أمين الحافظ.. على كل حال فإن هذا النظام لم يستمر طويلا بل انهار بسرعة!

علينا الآن أن نلمس الوجه الثالث لقضية كوهين، وهو الذى يتعلق بالسياسة الإسرائيلية، إن الرجوع إلى عيزر هاريل الذى أطلقوا عليه أغمض

رجل فى إسرائيل قد يلقى بعض الضوء على هذا الوجه، هاريل هو أحد الذين اشتركوا فى القبض على ايخمان، ترك الوظيفة التى كان يشغلها فى رئاسة الوزارة على إثر خلاف نشب بينه وبين رئيسه المباشر حول ضرورة شن حملة ضد ألمانيا بسبب وجود علماء ألمان فى مصر، كان بن جوريون يميل إلى التقرب من بون لدواعى الأمن والاقتصاد، وبالتالى كان يرى التخفيف من هذه الحملة، أما اسحاق هاريل فكان يرى أن وجود هؤلاء الخبراء والعلماء الذريين فى مصر يشكل تهديدا خطيرا يجب ازالته، ولما كان بن جوربون لا يحب مناقشة وجهة نظره فقد استقال اسحاق هاريل من منصبه، ثم جاء رئيس الوزراء الجديد ليفى اشكول وكان وزيراً للدفاع فى نفس الوقت ، ورأى الاستفادة من خبرة هاريل الذى كان طوال خمسة عشر عاما يحمل جميع أسرار الدولة، فعينه «مستشاراً للشئون الخاصة» وهى تسمية لم تخدع أحدًا، ولكن هاريل كان يريد ان يقوم بعمله بشكل جدى فى حين أن تعيينه لم يكن فى الغالب إلا مناورة سياسية داخلية، فنشبت خلافات جديدة وقدم هاريل استقالته مرة أخرى!

هاريل - الذى لم يتفوه بكلمة واحدة طوال هذه السنين العديدة التى خدم فيها الحكومة الإسرائيلية - قام بنشر خطابات وإلقاء محاضرات والإدلاء بأحاديث صحيفة وقد وصف العميل السرى كما يتصوره.

سئل مرة عما يراه فى العملاء الذين يتشبهون بـ «جيمس بوند» وعما إذا كان يقرأ مؤلفات «إيان فليمنج» فأجاب: على قدر ما سمعته عن جيمس بوند وأعترف بأنى لم أقرأ أى كتاب من الكتب التى تصف مغامراته - فإنى أرى أن هذه الشخصية ليست واقعية، إن الأمور تجرى بشكل مختلف جداً، اننا قمنا بتكوين جيل من العملاء يختلف كلية عن هذه الشخصية، لم نسمح أبداً للمغامرين بالدخول فى صفوفنا، وبالعكس فقد انتخبنا للمهام الدقيقة رجالاً وجدناهم - بعد فحص عميق لصفاتهم المعنوية واتزانهم الذهنى - قادرين على مقاومة المغريات والأخطار التى تتوالى على مدى حياة العميل السرى!

وفى رأى هاريل أن شبكات التجسس هى جزء من حرب «الأمخاخ» مضافا إليه القدرة على التنفيذ، ويعود هاريل - فى تصريحاته كرئيس سابق للمخابرات الاسرائيلية - إلي الكلام عن سبب اسقالته الأولى فيقول: إن

العلماء الألمان الموجودين فى مصر كانوا فى أغلبيتهم من النازيين السابقين وكانوا فى سبيلهم إلى تأسيس صناعة ذرية حربية فى مصر، وقد تم الضغط على جمهورية ألمانيا الاتحادية لاستدعائهم، وأرسلت تهديدات إلى العلماء الألمان، فضلا على الطرود الملغمة وقد أصيبت سكرتيرة أحد العلماء بفقد بصرها عندما فتحت طرداً موجها إليه فانفجر فى وجهها، واستدرجت ابنة عالم آخر من أشهر العلماء إلي سويسرا وضغط عليها لتقنع والدها بمغادرة مصر، غير أنها أبلغت السلطات السويسرية فقامت بضبط عمليتين إسرائيليتين وطردتهما!

ولقد قمنا بتحقيق فى هذا الصدد وبسؤال أحد كبار الموظفين فى حكومة بون عن سبب عدم استدعاء هؤلاء العلماء فأجابنا : «إن أكبر خطأ اقترفناه فى الماضى هو أننا نسينا روح الديمقراطية مما سمح بإنشاء أدمى الديكتاتوريات، ولا تريد ألمانيا الجديدة الوقوع فى نفس الخطأ، ومن المعلوم أن أحد المبادئ الأساسية فى الديمقراطية هو حرية التنقل للفرد، كيف يتسنى لحكومتنا أن تمنع مواطنيها من التوجه للعمل فى أى جهة يريدونها؟ إن سحب جواز سفرهم لمنعهم من الذهاب إلى البلد الأجنبى الذى يختارونه للعمل فيه سوف يعتبر عملا غير ديمقراطى وخطيراً جداً.

أما هاريل فله رأى آخر فى هذا الصدد فيقول :

«لولا الحملة الصحفية التى قمنا بها ضد العلماء الألمان فى مصر لكان التعاون بين مصر وألمانيا فى هذا المجال المهم قد توسع ونما، أما الآن فأعتقد أنه لم يعد يوجد فى مصر أى عالم ألمانى مشهور، أما بالنسبة لتدخل الحكومة الألمانية بصفة مباشرة فى هذا الشأن، فإنى أرى أنه كان يمكنها القيام به دون أن تتهم بخرق المبادئ الديمقراطية ودون أن تضطر لسن قوانين جديدة، فما كان على الحكومة الألمانية إلا أن تتخذ موقفا واضحاً وحاسماً ضد الخبراء وضد المؤسسات التى كانت تورد المواد اللازمة لصناعة الحرب المصرية، وكان عليها أيضا أن تدعو الأحزاب السياسية والصحافة المقربة إليها - إلى استنكار نشاط هؤلاء الرجال لخلق جو مناهض لهم، مع تجميد موقف أحزاب المعارضة فى إطار سياسة موحدة بالنسبة لهذا الموضوع، كان يمكنها أن تضطر العلماء إلى مغادرة مصر لو

كانت اتخذت إجراءات مشددة ضد المؤسسات والشركات التى كانت تساعدهم، كان يجب على الحكومة الألمانية أن تضم - اجتماعيا وسياسياً - كل الذين يساعدون المجهود الحربى المصرى، وأن تحرم الشركات التى تقوم بتوريد المهمات اللازمة لعمل الخبراء الألمان فى مصر من الطلبات الحكومية، كان يجب أن تدرس كل الإمكانيات القانونية والإدارية التى تؤدى إلى عرقلة عملهم وحرية تحركهم، كان يجب أن تتخذ إجراءات ضد الذين يخالفون «القوانين» فيما يتعلق بنشاط هؤلاء الخبراء ومعاونتهم، لو كانت الحكومة الألمانية مهتمة فعلا بهذا الأمر ومقدرة لانطوائه على المصلحة العليا للبلاد، لكانت قامت بعمل أكثر فاعلية»!!

حكايات أقنعة

وحيداً فى زنزانته، بقى كوهين ينتظر ساعة إعدامه، لا علم له بالضجة التى أثارها أو بالمساعى التى تبذل من أجله. كل ما يعرفه هو أنه لا سبيل لإنقاذه، لقد وقع فى المصيدة ولابد من إعدامه!

أنه يعرف قواعد اللعبة الجاسوسية «لعبة دقيقة وقاسية» لدرجة أنها لا تترك مجالا للتفكير فى الإنسانية، واختفاء عميل فيها ما هو إلا جزء من جولة طويلة تتضمن تضحيات واستبدال قطع بغيرها، الجاسوسية هى الحرب المتواصلة بطرق أخرى، إنه ليس أول من يموت بعيدا عن ذويه، فهو يدفع ضريبته كما دفعها وسيدفعها كثيرون غيره!

إنه يذكر فى مخيلته بعض من سبقوه ووقعوا.. إنهم عشرات من أشباه «إيلى كوهين» فى كل معسكر من المعسكرات التى يتنافسون فيها، إنهم عديدون ولكن لابد من أن يأتى وقت يجدون فيه أنفسهم وحيدين مثله!

هناك «جاكى كوتشوك» كان - مثل كوهين - قد اندمج فى أوساط السوريين فى بيوينس إيرس وتعرف ببعض الإسرائيليين الذاهبين إلى ريودى جانيرو فى شهر أبريل سنة ١٩٦١ ومن بينهم «ايلى أرجمان» القادم من معسكر بروهايل والذى كان ذاهبا إلى البرازيل كمدرس للحركة الصهيونية، وكان كوتشوك يقول عن نفسه إنه يهودى مصرى من أصل تركى وإنه يقيم ولا يملك شيئا سوى هذه الصورة الفوتوغرافية لمقابر اليهود بالقاهرة التى يقول إن والدته ترقد فيها، كانا يتناولان طعامهما على المائدة نفسها وأصبحا صديقين، لم يمكث أرجمان سوى شهرين فى ريو ولكنهما كان يتبادلان الهدايا الصغيرة وبعض الخدمات، ولم تنقطع صلتهما عندما عاد أرجمان

إلى إسرائيل، فاستقبله أرجمان فى معسكره وألحقه بمدرسة عبرية، كان جاكى أنيقاً نشطاً ماهراً وكان يتحدث كثيرا عن مصر ويظهر شوقه إليها ولكنه يتفوه بأقوال عنيفة جدا ضد عبد الناصر وكان يحمل دائما آلة تصوير فوتوغرافية!

إن «قانون العودة» فى إسرائيل - وهو أحد القوانين الأولى التى اعتمدها الكنيست - تقضى بأن كل يهودى يستقر فى إسرائيل يتجنس بصفة أوتوماتيكية بالجنسية الإسرائيلية، وتفرض عليه الخدمة العسكرية، وجاكى عمره ٢٣ سنة ولكنه لم يكن متحمساً للخدمة.. وعند تجنيده ألحق فى الأقسام الهندسية كسائق سيارة فتباعدت زياراته لصديقه وأخذ يشكو من عدم ميله للمهنة العسكرية، من أجل شبابه الضائع وتأخير زواجه بسبب قلة دخله، حتى تم تسريحه.

تسلمته إدارة المهاجرين بالوكالة اليهودية وأسكنته فى كوخ مؤقت فى «أشكلون» لحين وجود مسكن آخر له فى إحدى الشقق الرخيصة المخصصة للمهاجرين.

كان يريد مزاولة مهنة التصوير مع الاستمرار فى دراسته بالجامعة العبرية فى مدينة القدس، ولكن التحريات التى تقوم بها السلطات الإسرائيلية بالنسبة لجميع المهاجرين كانت قد أثارت الشبهات من بعض تصرفاته منذ وجوده فى البرازيل، فقبض عليه فى ديسمبر ١٩٦٣ ومثل أمام محكمة القدس بتهمة التجسس وحكم عيه بالحبس ١٨ سنة.

لقد ثبت أن اسمه الحقيقى «كيفورك يعقوبيان» وأنه من أصل أرمنى ويعمل لحساب المخابرات المصرية، وكان مثل كوهين يهدف إلى الاستقرار فى البلد الذى كلف بالتجسس عليه، مع الفارق الكبير بينهما، إذ كانت الأوساط التى اختلط بها يعقوبيان متواضعة بعكس كوهين الذى تمكن من الصعود إلى المراكز الرفيعة حتى كانوا يتندرون عليه فى دمشق ويقولون إنه لولا سوء الحظ الذى كشفه لكان «كمال أمين ثابت» من المرشحين لتأليف الوزارة السورية الجديدة!.. ويلاحظ أيضا أن يعقوبيان كان تحت المراقبة والمخابرات الإسرائيلية تصادر مراسلاته ومع ذلك فإن سبل العمل متشابهة فى الحالتين : مهاجر من أمريكا اللاتينية يعود إلى بلاد أجداده، إنها

طريقة «كلاسيكية» أن يحاول الجاسوس الاندماج فى البلد المرغوب فى التجسس عليه!

انهار يعقوبيان عند سماع الحكم عليه وتمتم : «هذا كثير.. هذا كثير» كان هذا المسكين فى سنة ١٩٥٨ وعمره عشرون عاما يعول والدته بدخله الضئيل من مهنة التصوير، وقبض عليه بسبب جنحة بسيطة. فجندته المخابرات المصرية بترغيبه فى المكاسب الكبيرة التى يمكنه الحصول عليها. وكان تدريبه سريعا. فقد طلب الهجرة تحت ستار شخصية اليهودى اللاجئ عديم الجنسية.. واستغل عمله فى الجيش الإسرائيلى لموافاة رؤسائه فى القاهرة بما يلاحظه ويصوره.. وقد أيدت المحكمة العليا الحكم عليه للتجسس المتعمد ونقل معلومات سرية..

وبعد سنتين، نشرت الصحافة الإسرائيلية الخبر القصير التالى : «الجاسوس كيفورك يعقوبيان، ومعه فدائيان مصريان، قد تم تسليمهم إلى مصر مقابل ثلاثة إسرائيليين من سكان «هرزليا» كانوا معتقلين فى مصر منذ شهر أغسطس الماضى وقد تم التبادل بعد تدخل الأمم المتحدة المباشر».

وهناك أيضا «شمويل سامى باروخ» الذى قارب النجاح وكاد يصل فى إسرائيل إلى مثل ما وصل إليه كوهين فى سوريا. كانت هذه أول مرة تضمن فيها المخابرات المصرية تعاون رجل ليس مجرد مغامر بل كان من رجال المال الإسرائيليين وكان يطمع فى أن يلعب دورا أساسيا فى إسرائيل مثل إيلى كوهين الذى أصبح أحد قادة حزب البعث فى سوريا. ولد سامى باروخ فى فلسطين من عائلة محترمة وقام بانشاء مصنع للغزل فى «كيريات جات» عاصمة لاخيش الجديدة وهى منطقة نمو صناعى فى إسرائيل، ولم يكن فى حاجة لاتخاذ شخصية جديدة لأن شخصيته الحقيقية كانت تتفق تماما مع الدور الذى كانت المخابرات المصرية تعتزم تكليفه به والذى كان يتضمن تحويل مصنعه إلى قاعدة نشاط للعملاء المصريين فى إسرائيل.

وقبل شمويل باروخ - المهندس فى صناعة النسيج والمدير لمصنع كبير فى إسرائيل، والمولود فى القدس، والمتزوج وهو والد لثلاثة أطفال والمرتبط بعلاقات عائلية فى عالم التجارة والصناعة الدولى فى إنجلترا وسويسرا - قبل شمويل باروخ أن يلعب هذا الدور الذى عهد به إليه المصريون!

تبدأ الحكاية فى سنة ١٩٥٨ فى مانشستر وسط الضباب الانجليزى كان باروخ يقيم فيها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ويعمل مهندساً فى مصنع يملكه يهودى اسمه سالم وقد تزوج ابنته فيما بعد، وكانت إسرائيل فى ذلك الوقت تعمل لتنمية صناعة النسيج لتتيح فرصا للعمل للمهاجرين الجدد ولتكسب أسواقاً أجنبية جديدة، تعرف الملحق الاقتصادى فى سفارة إسرائيل بلندن بالمهندس باروخ واقترح عليه أن يعود إلى إسرائيل حيث ستكون أمواله ومعلوماته الفنية مفيدة جدا فى خدمة الدولة الناشئة، وكان من السهل إغراء باروخ بالمزايا التى ستترتب على انطلاقه فى أعمال سوف تتسع مع نمو البلاد، وبعد وصوله إلى إسرائيل اتصل بكبار الموظفين فى وزارة التجارة والصناعة وعرض عليهم اقتراحات مغرية، كان يثق بنفسه وقد سبقته فى إسرائيل شهرة بأنه من ألمع الفنيين، فرحبوا به واستمعوا إليه.

إن مدينة كيريات جات الجديدة تصلح تماما لتضم أكبر مصنع فى البلاد، وسيتيح ذلك فرصة لا تعوض لفتح أبواب العمل لما لا يقل عن مائة عامل وبذلك تستوعب المنطقة المهاجرين الجدد اليها.. وحصل باروخ من خبراء وزارة التجارة والصناعة على التأييد التام وعلى جميع التوصيات اللازمة.

كان الترحيب به حاراً فى كيريات جات وسرعان ما وضع تحت تصرفه قطعة أوض مساحتها ١١٠٠٠ متر مربع وقرض حكومى بمبلغ ٧٠٠٠٠٠ جنيه إسرائيلى، علما بأنه كان قد وعد بأن يستثمر من ناحيته ٦٠٠٠٠٠ جنيه فى المشروع.

تم إنشاء المصنع فى سنة ١٩٦٠، كان يمتد على مساحة ألفى متر، واستورد باروخ من إنجلترا أنوالا للنسيج واجتهد فى أن يجتذب الاهتمام العام حول المشروع، وكان يدعو شخصيات بريطانية كبيرة لزيارة المصنع ومن بينها رئيس حزب العمال الايرلندى الذى قال إنه على استعداد لاستثمار أموال ضخمة فى المصنع، ولكن الحماس هبط بنفس السرعة التى كان قد ارتفع بها، عندما لوحظ أن الآلات التى استوردها باروخ من انجلترا كانت قديمة ولا تصلح الا للكسر، وان القرض الحكومى استعمل فى بناء وتأثيث المصنع بينما كان المتفق عليه هو أن يقوم باروخ بنفسه بذلك وأن يشترى بأمواله الخاصة المواد الأولية اللازمة لتشغيل المصنع مع تكوين رصيد من

المال السائل لصرف الأجور، غير أنه اتضح أن رأس المال الذى تعهد به باروخ لم يكن له وجود إلا فى خياله..!

كان الرجل بلاشك مهندسا قديراً ولكن كفاءته كرجل أعمال كانت ضعيفة جداً، وبدأت المتاعب تظهر، نضب المال الاحتياطى من أول سنة ولم تتوافر النقود اللازمة لشراء المواد الأولية ولا حتى لدفع أجور العمال، بحث باروخ عن شركاء وجاء بعضهم إلى كيريات جات وزاروا المصنع وفحصوا الموضوع من جيمع جوانبه وسرعان ما تحققوا من أن المشروع - فى حالته الراهنة - غير صالح للاستثمار، فانسحبوا وبقى باروخ وحيدا، لم يبق فى المصنع سوى أربعين عاملا من التسعين الذين كانوا قد عينوا فيه، ومع ذلك فلم يكن يستطيع دفع أجورهم، ولما رأى نفسه مهدداً بالافلاس فكر فى إشراك العمال فى ادارة المصنع، راجت الفكرة وخاصة أن النظام التعاونى كان ناميا فى إسرائيل، ويوجد فى الهيستادروت مركز تعاونى لإقراض العمال الذين يرغبون فى تكوين جمعية تعاونية فيما بينهم، وتمكن باروخ من إقناع ٢٥ عاملا حصل كل منهم على قرض بخمسة آلاف جنيه وهكذا تجمع له مبلغ ١٢٥٠٠٠ جنيه كرأس مال جديد لمصنع النسيج، ولكن المتاعب تكررت بعد قليل فتذكر عائلته ومعارفه فى انجلترا وسويسرا، ذهب أولا إلى جنيف حيث يقيم أحد أنسبائه وهو صاحب بنك «صفرا» ومن أصل مصرى، وقد اشتبه فيما بعد فى أن صفرا هذا هو الذى وضع أسس العلاقات بين باروخ ورجال المخابرات المصرية، ولكن صفرا يؤكد براءته من ذلك، وفى الواقع كان اتصل باروخ بهم عن طريق غير مباشر، اذا كان قد نشر فى الصحافة السويسرية اعلان بطلب رؤوس أموال لمشروع مريح يبشر باحتمالات توسع طيبة، ومعلوم ان احدى مهام العملاء المتخصصين فى التعبئة لأقسام المخابرات هى فرزالاعلانات الصغيرة التى يجدون فيها أحيانا مصدرا للمعلومات المفيدة، قامت المخابرات المصرية باجراء تحقيق سرى عن هذا «المشروع المربح» وتقدمت بعروض مغرية، ويجب ألا ننسى أن باروخ كان على حافة الإفلاس فاعتقد أنه قد وجد طريق النجاة بفضل هذه العروض لاسيما وأنه كان ينسب متاعبه الى السلطات الإسرائيلية التى لم تقم بالوفاء بوعودها!

وهكذا تمكن باروخ، رغم حالة أعماله المتدهورة، من أن يعود إلى إسرائيل

ويستمر فى معيشته الفخمة، ويدعو أصدقاءه العديدين إلى مائدته التى كانت مشهورة بتقليد «العشاء بالشامبانيا».. إنه وقع فريسة سهلة لعملاء المخابرات المصرية الذين دعوه للحضور إلى القاهرة ورحبوا به وتنقلوا معه بين المطاعم الفاخرة والبارات والكباريهات، ولما تم إعداده تماما، عرضوا عليه طلبهم بصراحة: هل يستطيع أن يزرع شبكة من العملاء المصريين فى إسرائيل؟ ولم يكن هذا السؤال إلا أمراً مقنعاً، اذ كان باروخ قد تورط إلى درجة لا يستطيع معها أن يرفض بغضب ويغادر مصر.. وتم الاتفاق على أن العملاء المصريين سيدخلون إسرائيل بوصفهم خبراء أو ممثلين تجاريين أو مهندسين وعلى أن يقيموا فى كيريات جات حيث يوجد المصنع وقد نصحوه أيضا بأن يشترك فى المجال السياسى وكان باروخ قد التحق من قبل بحزب جديد اسمه «إسرائيل الفتاة» وأعضاؤه من اليهود المهاجرين من البلاد الشرقية الذين كانوا يتذمرون من الأحوال الاجتماعية فى إسرائيل ومن التمييز الذى كانوا يعاملون به بصفتهم يهودا شرقيين.. وكان باروخ يؤكد لقادة الحزب أنه سيقوم بتمويل نشاطهم، وقام خطيباً فى أحد اجتماعاتهم ليقول إنه قد آن الأوان لازالة التفرقة العنصرية خاصة وأن «السفاراديم» أى اليهود الشرقيين يشكلون الأغلبية من سكان إسرائيل وأنه هو يملك من المال ما يكفى لتنظيم هذه «الثورة العادلة»!

غير أن باروخ كان يجهل أنه قد وضع تحت مراقبة المخابرات الإسرائيلية إذ صادف عند سفره من مصر إلى أوروبا أن رآه أحد الإسرائيليين الذين كانوا موجودين فى المطار هناك عند نزوله من طائرة شركة مصر للطيران.. فبادر بابلاغ ذلك إلى ادارة الأمن الإسرائيلية.

وعلى أى حال فان مركز المصنع كان لايزال سيئاً جداً، الأمر الذى كان المصريون يجهلونه ولذلك لم يزودوه بالمال لاعتقادهم أن عميلهم من الأثرياء، فزادت المحال سوءاً لدرجة أن باروخ كان لا يستطيع دفع ثمن وجباته فى المطعم، وأخيرا تم اعلان تفليسه فى ٩ أكتوبر ١٩٦٣ وتوقيع الحجز على مصنعه الذى كان قد توقف عن العمل منذ ثلاثة أشهر لعدم صرف أجور العمال.

ماذا كان فى استطاعة باروخ أن يفعله الآن؟ لم يعد فى إمكانه أن يقوم

بالمهمة التى كلفته بها المخابرات المصرية، بعد إغلاق المصنع الذى كان من المفروض أن يستقبل فيه «زائريه».. وكانت زوجته قد هجرته مصطحبة أولادها الثلاثة.. وكان غيظه شديدا لفشله على طول الخط فقرر أن يغادر إسرائيل نهائيا، ساعده بعض أعضاء أسرته ليدفع إلى المحكمة الكفالة التى سمحت له باسترداد جواز سفره الفرنسى، وحاولوا القيام بتسوية ودية للتهم التى كانت تعرضه للمحاكمة الجنائية (نصب وتزوير كمبيالات واقرارات زائفة أمام البوليس).

واستعد باروخ للسفر بالطائرة ولكنه ألقى القبض عليه لدى وصوله إلى مطار اللد، وعند تفتيش أمتعته عثر على بعض الوثائق الخاصة بأمن الدولة وعلى مخطوط عن حالة إسرائيل الاقتصادية المزعومة والثورة التى ستقوم فيها، أكد باروخ أن هذا المخطوط كان ينوى نشره كمقال فى الجريدة التى تصدرها «إسرائيل الفتاة» وأيده رئيس الحركة المذكورة فى هذا الصدد ولكنه طرده من الحزب.. وقال باروخ لمحاميه إنه لم يتسبب فى أى ضرر لإسرائيل وأن المصريين حقا كان فى نيتهم أن يستغلوه ولكنه لم يقم بعد بفعل أى شىء.. ليته لم يلفظ كلمة «بعد» هذه لأن القضاة لم يرحموه بل حكموا عليه بالسجن لمدة ١٨ سنة، أى ما يقرب من أقصى العقوبة المنصوص عليها فى أحوال التجسس لصالح العدو!

استأنف باروخ الحكم أمام المحكمة العليا.. فى مايو سنة ١٩٦٥ وكان المحامى هينجمان يترافع عنه فطلب من المحكمة استعمال الرأفة لأن المصريين هم الذين قاموا بالمبادرة بالاتصال بباروخ الذى كان وقتئذ تحت تأثير الصدمة التى سببها له سوء أحواله، ولو كان فى حالته الطبيعية لرفض بقوة العروض المصرية وعلى كل حال فإن باروخ قد وضع حداً قاطعاً لمهمة التجسس عندما قام بتصفية مصنعه فى كيريات جات، ثم إن حالته الصحية رديئة وسيضطر لاجراء عملية فى الكلى ومن ناحية أخرى فانه لم يتلق أى أجر من المصريين ولا يمكن تفسير هفوته إلا بأنها كانت نتيجة لحظة ضعف وانهيار عصبى، ان عقوبة ١٨ سنة شديدة جدا خاصة وأنه فى قضايا جاسوسية سابقة كانت المحكمة أكثر رأفة!

قام النائب العام بتفنيد حجج الدفاع، بأن القيام فعلا بابلاغ العدو

معلومات سرية هو أقل خطورة من القيام بوضع خطة للاتفاق مع المصريين، ومن القبول بأن يصبح المصنع مركزاً لعمل رجال العدو، ثم إنه لم يثبت أن باروخ قام بتصفية مصنعه لوضع حد للمهمة المكلف بها، بل إن اغلاق المصنع جاء نتيجة للمتاعب المالية التى لم يتمكن المتهم من التغلب عليها.. وبعد المداولة رفضت المحكمة العليا بالقدس أسباب الاستئناف وأيدت الحكم بعقوبة ١٨ سنة وأبرزت فى حيثياتها أن الأفعال المتهم بها باروخ أخطر من التى حوكم من أجلها غيره من المتهمين بالعمل ضد أمن الدولة، فان باروخ كان قد قبل أن يعمل كستار تختفى وراءه شبكة جاسوسية للأعداء فى إسرائيل!

كم من القطع الأخرى تتحرك وتسقط فى لعبة الشطرنج العنيدة التى تتبارى فيها أقسام المخابرات السرية.. ففى يوم شديد الحر من أيام شهر يونيه، فى القاهرة، كان الكابتن عمر يروح ويجىء فى مكتبه وهو يجفف عرقه، إنه قلق... كان قد استمع إلى الاذاعة العربية لراديو إسرائيل ولم تعجبه.. لاشك أن الإسرائيليين مطلعون تماما على حقيقة الحال فى البلاد العربية بصفة عامة وفى مصر خاصة!

لم يكن عمر - النقيب فى المخابرات المصرية - يعلم أن كوهين كان فى ذلك الوقت موجوداً فى دمشق، إنه يعرف جيداً ان إسرائيل حريصة على توزيع عملائها فى بلاد الشرق الأدنى وأن المخابرات المصرية تحاول عرقلة عملهم بايفاد عملائها فى إسرائيل!

ويمكننا الاستمرار طويلاً فى متابعة هذه السلسلة من صور الجواسيس، الكبار والصغار منهم، إن الحرب السرية فى الشرق تزخر بهؤلاء الأشخاص الذين يحسب الانسان أنهم من أبطال الروايات الشعبية مثل روايات «فانتوماس».. وعملية «الأب يواقيم» كانت احدى العمليات التى أشرف عليها الكابتن «عمر» والتى لا يعرف عنها قراء العربية أى شىء!

إن الأب يواقيم رئيس الطائفية القبطية فى فلسطين، كانت رعايته تمتد على الأراضى الإسرائيلية والأردنية، وكثيراً ما كان يعبر من ناحية إلى الأخرى من بوابة «ماندلبوم» وهى نقطة الحدود السابقة عندما كانت مدينة القدس مقسمة إلى قسمين، وكانت هذه البوابة هى الطريق الوحيد الرسمى

للمرور بين إسرائيل والبلاد العربية وكان عدد كبير من السواح والحجاج يعبرونه من الناحيتين، وكان الأب يواقيم الأنطونى كغيره كثيرين من رؤساء الكنائس والطوائف المختلفة فى الأراضى المقدسة، يمر من ناحيتى المدينة القديمة لإدارة أملاك كنيسته والاتصال برعاياه، وكان من الطبيعى أن يمر هذا الأسقف «المتجول» رافعا رأسه، ودون أن يخضع للتفتيش المعتاد، وفى أحد أيام شهر أكتوبر سنة ١٩٥٦ كان الأب يحمل تحت ذراعه ثلاثة سجلات احصائية ضخمة مما أثار اهتمام «أبا ماليفتش» موظف الجمرك الإسرائيلى الذى طلب من القس أن يبرز له محتويات محفظته، وعندما بدأ موظف الجمرك فى فحصها، خطف الأب يواقيم المحفظة من يده بحركة عصبية وتابع سيره بجلال.. إلا أن ورقة كانت قد وقعت من المحفظة، وبعد أن جرى الموظف وراء الراهب ليرد الورقة إليه عاد دون جدوى، فقام بتسليمها إلى رؤسائه الذين أحالوها بدورهم إلى المخابرات الإسرائيلية، كانت الورقة تشتمل على كشف بمطارات وأجهزة الطيران الإسرائيلية وبمصانع المهمات العسكرية.. وما كان على الجمارك الإسرائيلية إلا أن تنصب فخاً للقبض على القس الجاسوس بمجرد ظهوره مرة أخرى، وبعد ذلك بأربعين يوماً حضر نائب الأب يواقيم بمدينة يافا إلى بوابة ماندلبوم لاستقبال خمسة قساوسة أقباط قادمين من الأردن، وكان ماليفيتش موجوداً فى الخدمة وقتئذ، ولما علم أن الأب يواقيم كان من بين الخمسة القادمين جرى لمقابلته ودعاه لتناول كوب شاى معه، وتنازل الأب يواقيم وقبل الدعوة رغبة منه فى ضمان حسن نية الموظف، وبعد دخوله الأراضى الإسرائيلية وفى أثناء حديثه مع نائبه اليافوى، ذهب ماليفيتش إلى التليفون وهمس باللغة الألمانية: «إن العصفور فى القفص»!.. وبعد عشر دقائق كان الأب يواقيم مقبوضاً عليه، وقد اعترف بأنه يعمل لحساب المصريين فحكم عليه بالسجن ١٢ سنة وقد أفرج عنه بعد ثمانى سنوات وأعيد إلى مصر.

لم يكن هذا إلا واحداً من أمثلة التوجه الدينى.. ففى نظره، كان اليهود لايزالون هم الشعب الذى قتل ربه وإسرائيل وطنهم يجب أن تقع تحت طائلة اللعنة التى لحقتهم منذ عشرين قرنا!

الجاسوس وعشيقته!

كان الإسرائيليون يختالون دائما متباهين بقدرة اجهزة استخباراتهم وكانت تصريحات زعماء دولة الإرهاب - السياسيين والعسكريين - تؤكد فى تواضع زائف أن أحدا لا يجسر على التغلغل داخل المجتمع الإسرائيلى داخل الجدار الأمنى الوهمى.. وان المواطن الإسرائيلى لا يقبل بأن يتعاون مع اجهزة المخابرات المعادية مهما كانت الدوافع!

وفى إطار الحرب السرية بين القاهرة وتل أبيب، كان هناك أبطال حقيقيون ومغامرون مرتزقة والإسرائيليون يذكرون جيدا موردخاى كيدار الإسرائيلى المولود فى فلسطين، وينتسب لأسرة كان عميدها حاخاما وتلقى علوما فى مدرسة الهاجاناه العسكرية والذى كان ناقما على مدير الموساد الإسرائيلى فى ذلك الوقت إيزر هاريل بوصفه كان عاملا فى مصنع خل عند قيام الدولة اليهودية، ولعل هذا ما يفسر رائحة الخل فى تقاريره!.. حتى أجبر على تقديم استقالته فى ٢٤ مارس عام ١٩٦٣ ومع ذلك تعاون موردخاى مع جهاز المخابرات المصرية بكل إخلاص فى عهد رئيسه زكريا محيى الدين.

ويذكر الموساد أيضا اولريتش شنيفت الذى كان من أبرع الجواسيس الذين قدموا خدمات جليلة لمصر.. والرجل الأكثر غموضا الكسندر بولين وبالطبع د.إسرائيل بيير وعشيقته ديانا ذهابى والذى كان كشفه ضربة قاصمة لأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية وصدمة هائلة لما يسمى بـ «الشعب اليهودى»!

ولو أن أحداً من الروائيين العالميين حاول أن يرسم بقلمه صورة لجاسوس محترف لما تمكن خياله من ابتكار شخصية تتمتع بهذا القدر من التعقيد؛ ضابط برتبة كولونيل، أستاذ بجامعة تل أبيب، مستشار للأمن القومى فى

الحكومة الإسرائيلية ، مؤرخ بوزارة الدفاع، معلق عسكرى بصحيفة «هامشمار» وصحيفة هاآرتس والمستشار المقرب جداً من دافيد بن جوريون رئيس الحكومة الإسرائيلية فى ذلك الوقت!

كان د. إسرائيل بيير هو الذى يحظى بكل هذه الوظائف.. وكل هذا النفوذ والشهرة! وقد أثار اعتقاله فى ليلة عيد الفصح عام ١٩٦١ عاصفة فى أروقة الموساد الإسرائيلى!.. وعندما نظرت قضيته أمام المحكمة، قال ممثل الادعاء: «إن إسرائيل كان مطلعا على أسرار الدولة وأنه أفشى هذه الاسرار لأعداء إسرائيل!

لم يكن بيير مطلعا على أسرار الدولة فحسب، بل كان أيضا وثيق الصلة بمؤسسات واكاديميات عسكرية وأجهزة مخابرات فى القارة الأوروبية، كان صديقا لعدد كبير من الجنرالات والقادة السياسيين، وكان يدعى لإلقاء محاضرات فى الاكاديميات العسكرية ورئاسات أركان الحرب فى جيوش أوروبا، وتجول فى قواعد حلف الأطلنطى وشهد عددا من المناورات السرية!

فى واقع الأمر، كان بيير نموذجا فريدا للقدرة على التزييف والادعاء.. فهو لم يحصل أبداً على درجة الدكتوراة، ومع ذلك تقدم إلى جامعة تل أبيب مقترحا أن تنشئ له «كرسيا» لمادة التاريخ، وظل يلقى المحاضرات وينشر الأبحاث وتأليف الكتب ومنها: أمن إسرائيل - أمس واليوم وغداً «ومشاكل الأمن» و«الشرق الأوسط بين الشرق والغرب».

ولد بيير فى فينيا وكان والده من رجال الصناعة الأثرياء، درس فن الاخراج على «ماكس وينهارت» المخرج الألمانى الشهير، وزعم أنه التحق بأكاديمية الفنون وحصل على دكتوراة فى الفلسفة ثم هجر الإخراج والفلسفة عقب صعود هتلر وفر إلى أسبانيا وانضم إلى الفرقة الحادية عشرة فى قتالها ضد القوات الألمانية.. ثم زعم أنه قرأ كتاباً عن الحركة الصهونية، الذى أكد قناعته فى ضرورة العمل على اقامة وطن قومى لليهود، وفى أرض الميعاد كانت كل الظروف مهيأة لاستقباله، فى الوقت الذى كانت فيه عصابات الهاجاناه تتولى مهمة تدمير القرى الفلسطينية وإعداد المذابح للسكان العرب.. ولأن بيير كان ضابطا فى اسبانيا - كما زعم - وفى حقيبته شهادة للدكتوراة، فقد شق طريقه بسرعة وسط عصابات من الجهلة

المتعصبين حتى أصبح مديراً لعمليات الهاجاناة فى الجليل ثم أصبح مديراً للتخطيط ثم رئيساً لأركان حرب الجنرال ايجال يادين قائد الجيش فى حرب ١٩٤٨ وعندما أصبح رئيسا لقسم التاريخ بجامعة تل أبيب، أقيم حفل تكريم حضره «بن جوريون» وألقى فيه كلمة هنأ فيها المؤرخ والمقاتل العظيم!

وكما تنوعت حياته العامة، تنوعت كذلك حياته الخاصة.. فقد كان شغوفا بالنساء فغرق فى العلاقات الخاصة وكثيرا ما شوهد فى الملاهى بصحبة الفتيات الصغيرات!

وكان بيته بشارع «برانديس» رقم ٦٧ بتل أبيب أشبه بالملهى الليلى حيث السهرات الصاخبة!

لم يكن بيير جاسوساً بطبيعته، ولكنه تمكن من تحقيق ذاته فى إسرائيل وكان منطقياً فى مجتمع قام أساساً على أكذوبة «أرض الميعاد» أن يتبنى رجلاً مسلحاً بالأكاذيب، فتحت أمامه الأبواب وتعددت مناصبه المرموقة وذاعت شهرته، كان مقرراً أن يظل بيير فى اتجاهه الصاعد، لولا أحداث حرب ١٩٥٦ والتى تمخضت عن سطوع نجم جديد هو «موشى ديان» الذى كان يضمر العداء لبيير نظراً لمكانته فى قيادة أركان الجيش وثقافته العسكرية والتاريخية الواسعة.. وتصاعد حقد كل منهما على الآخر، حتى سلطت الأضواء على ديان الذى وجد نفسه فى موقف يسمح له بالإعلان عن أحقاده القديمة تجاه خصمه القديم «بيير»!

فى خريف عام ١٩٥٥، دعا بن جوريون رئيس الحكومة الإسرائيلية إلى اجتماع عاجل لمجلس الوزراء بحضور «عيزر هاريل» رئيس جهاز الموساد»، وكان ضمن الذى شملتهم الدعوة المحلل السياسى والضابط السابق إسرائيل بيير وكان هذا أمرا غريبا استنكره بشدة موشيه ديان عندما مال على «عيزر هاريل» قائلاً له: ما الذى أتى بهذا الرجل إلى هنا؟!.. نظر الجميع لبعضهم بعضاً يستطلعون الحدث قبل وقوعه وقطع نظرات الدهشة أحد الوزراء عندما هم بالكلام وقبل أن يكمل كلمته الأولى أكمل بن جوريون قائلاً: إنه ليس تعارفا بالمعنى الذى فهمتموه ولكنى أود أن أقول لكم إننى أصدرت صباح اليوم قبل هذا الاجتماع مباشرة قراراً بتعيين السيد «إسرائيل بيير» مستشاراً للأمن القومى الإسرائيلى ومساعداً فى الشئون الأمنية!

وصرخ ديان: تقول من يا سيدى الرئيس؟

قال بن جوريون فى حزم: صديقى ومستشارى إسرائيل بيير.

لم يخجل ديان من الوقوف منتصبا وكأنه يهم بالخروج من المجلس قائلاً لبن جوريون: سيدى هذا الرجل الذى تريد أن تسلمه خزائن أمن إسرائيل، مجهول الهوية تماما كيف يحدث هذا.. أنا غير موافق على تعيينه فى هذا المنصب. ابتسم بن جوريون ورد على ديان وهو ينظر باتجاه الرجل الأصلع بيير قائلاً: هذه مشكلتك ديان اذا لم تكن تعرفه، أما أنا فأعرفه جيداً، وأثق فيه تماماً، لقد خدم هذا الرجل إسرائيل بجدية ونشاط منذ أن هاجر اليها من النمسا عام ١٩٣٥، ورأيته فى جيش الهاجاناه السرى ورأيته وهو يخدم فى جيش الدفاع الإسرائيلى بنشاط فائق كما أنه متميز سياسيا ولديه قدرات تفتقر أنت شخصيا إليها.. أرجوك اصمت ولست هنا بصدد أخذ رأيك.. ثم أردف: أنا أعلم تماما أن الغيرة لها مكان فى صراخك هذا!

بعد انتهاء الاجتماع العاصف الذى شهد إعلان تعيين «بيير» مستشاراً للأمن القومى الإسرائيلى، خرج ديان من مكتب رئيس الوزراء ليسير بمحاذاة عيزر وكل منهما ينظر نحو الآخر نظرات صامتة ذات مغزى.. وفى المساء طلب عيزر من ديان أن يزوره فى مكتبه أو أن ينتظره ليحضر هو اليه، ودون أن يسأله ديان عن سبب اللقاء ادرك أن عيزر يريد أن يتحدث معه بشأن المستشار الجديد للأمن القومى لإسرائيل.

فى الثامنة مساء كان عيزر يستقبل ديان بمكتبه بمبنى الموساد فى تل أبيب والذى فاجأه بسؤال حاسم وحازم: عيزر أريد أن أعرف كل شىء عن هذا الرجل.

نظر إليه عيزر نظرة استخفاف وقال له: اليوم وبعد كل هذه السنوات تأتى لتسألنى من هو هذا الرجل؟!

قال ديان: فى الماضى لم يكن مهما أن يلتحق بالجيش ولكن اليوم سيضطلع بمهام تمس أمن إسرائيل فى الصميم!

خرج بيير من قاعة الاجتماعات منتشياً بالنتائج التى حصل عليها خلال هذا الاجتماع فقد كان هذا المنصب هو أكبر مما كان يطمح اليه فى هذا

الوقت وفى مثل هذه الظروف خاصة بعد أن عمد موشيه ديان إلى الإساءة لسمعته فضلا على ملاحقة عيزر له ومتابعته متابعة حثيثة أثناء لقائه بإحدى عشيقاته.

وخلال الطريق الذى قطعه من غرفة الاجتماعات وحتى الباب الخارجى كان يتلقى التهانى من كل العاملين بمجلس الوزراء وقبيل أن يخرج من بوابة المجلس ليستقل سيارته فوجىء بأحد الحراس يعدو خلفه طالبا موافاة بن جوريون فى مكتبه.

عاد بيير منزعجا لهذا الاستدعاء السريع بعد هذا الاجتماع الصاخب ودخل مكتب رئيس الوزراء.. سيدى ماذا هناك لقد كنت خرجت بالفعل من المقر، رد بن جوريون عزيزى بيير.. أرجو أن تسمعنى جيداً اليوم بالطبع أدركت كم يكرهك ديان وكم يكرهك عيزر أيضاً، وهما أخطر شخصيتين فى المجلس، فكن حذراً ولا تفسح لهما المجال لأن يضبطا عليك موقفا يحسب عليك لأنك أنت إسرائيل بيير محسوب علىَّ، فى المساء كان لابد لإسرائيل بيير أن يحتفل بهذه المناسبة فاتصل بإحدى عشيقاته وكان اسمها حنة وطلبها أن تلتقيه فى حانة أتوم فى شارع بن يهودا الصاخب فى تل أبيب وقال لها: «لا تتخلفى فلدى هدية رائعة لك ومفاجأة ستسعدك بلا شك».

فى التاسعة مساء كان إسرائيل بيير يقدم هديته لعشيقته- وهى زوجة لأحد ضباط وزارة الدفاع الإسرائيلية، وكان زوجها شديد الغيرة عليها ودائم الشك فيها لشدة جمالها، وبعد نصف الساعة بالضبط من وصولها لحانة أتوم بيير فوجىء الاثنان بشالوم زوجها يقف على رأسيهما وقبل أن ينطلق أحدهما بكلمة انهال الضابط باللكمات والصفعات الشديدة على وجه إسرائيل بيير حتى وقعت سنتان من أسنان بيير وأخذ ينزف وقام بعض العاملين بالحانة بنقله لمستشفى تل أبيب.

بعد أيام عندما سأله بن جوريون عن أسنانه المفقودة قال له: لقد فقدتهما يا سيدى فى حادث سيارة.. بينما ضحك كل من ديان وعيزر عندما وصلهما الخبر، واتصل ديان بعيزر قائلاً له: لا أعتقد أنك بعيد عما حدث لهذا المارق!

كان بيير يصف «موشى ديان» بأنه جاهل، أفاق، كل مؤهلاته رصاصة

طائشة اقتلعت إحدى عينيه!.. وكان ديان فى كل اجتماع يسفه آراء بيير أمام كبار الضباط: «إن بيير قرأ كثيراً فى الشئون العسكرية لكنه غير قادر على كسب معركة على الأرض»ووصلت الأزمة ذروتها عندما طلب منه ديان فى إحدى المرات: مغادرة الاجتماع!

كان بيير شغوفاً بالرحلات، وكانت السفارة الإسرائيلية فى «بون» تتولى دفع كافة نفقاته فى أوروبا، بتعليمات من بن جوريون ورؤساء المخابرات الإسرائيلية، باعتبار أنه يمثل وزارةالدفاع فى مهام سرية!

واستغل بيير هذا المنهل، فكان يقيم فى أرقى الفنادق ليشبع نهمه إلى الطعام الفاخر والخمور الجيدة والحسناوات الأوروبيات.. حتى أمر ديان بوقف هذا «الاسراف» المبالغ فيه!

أغرق بيير نفسه فى الخمر، إزاء هذه المحنة، وازداد نحوله، وأصيب باضطراب عصبى.. وتخلت عنه عشيقاته إلا «ديانا ذهابى» التى كانت تكن له أرق العواطف الانسانية.. وبكت من أجله.. وقررت أن تهب لنجدته.. ولسنا ندرى هل كان القرار الذى اتخذته لمساعدة عشيقها: من وحى أفكارها أم كان بإيحاء من بيير نفسه؟

كان ذلك فى يناير عام ١٩٥٧، عندما شاهدت سكرتيرة السفارة المصرية فى «باريس» سيدة رائعة الجمال ترتدى معطفاً واقياً من المطر، وسيجارة بين أصابعها، تريد مقابلة مسئول.

ويبدو أن روح المغامرة التى ميزت بيير منذ شبابه، قد انتقلت إليها، وسرعان ما وجدت رجلا فارع الطول، تنطق ملامحه بالصرامة، يقتادها إلى غرفة جانبية فى الطابق الأول.. ولم تكد تتأمل الأثاث البسيط للغرفة حتى دخل شاب قوى البنيان يرتدى بلوفر رمادياً فوق قميص أبيض مفتوح.. والذى تملكه الذهول عندما تعرف على شخصية «الضيفة» المرتبكة.. كانت عشيقة المستشار الخاص لبن جوريون.. جاءت تقدم عرضاً سخياً غير مقترن بأى شروط: أن تتعاون باخلاص مع المصريين.. كانت تتحدث الفرنسية ولكى تؤكد مقاصدها وحسن نواياها أعادت كلمة «إخلاص» بالإنجليزية!

وصارحها الشاب بأن الموضوع أخطر من أن يناقش بالمراسلات ووعدها

بأن يتوجه للقاهرة فى نفس اليوم بالطائرة، ليرتب العملية مع رؤسائه، واتفق معها على اللقاء يوم الأحد التالى فى محل لبيع الزهور.

وفى القاهرة طرحت العملية على مائدة البحث، بمبنى المخابرات العامة، وكانوا ثلاثة: رئيس المخابرات العامة ونائبيه.. ثم توجه رئيس المخابرات العامة إلى جمال عبدالناصر فى «مقابلة غير عادية»!

وكان رأى قادة الجهاز أن الحاجة للمال هى الدافع لتصرف ديانا، بالإضافة إلى «المناخ النفسى» الذى وجدت فيه عشيقها بعد «الإجراءات الانتقامية» للجنرال ديان!

واعتبرت العملية «نظيفة» تماماً، أى ليست عملية مدسوسة.. واتخذ قرار بالإغداق على المرأة لكى تتمكن من تقديم العون لعشيقها «الرجل الخطير»!.. وكان رجال المخابرات المصرية على استعداد لأى تضحيات مادية من أجل الوصول إلى شخص فى مكانة بيير.. ومن أجل هذه الجاسوسة «النادرة» استخدمت المخابرات المصرية اجراءات معقدة: اختين غير شقيقتين. الكبرى فرنسية الأم، والصغرى مصرية خالصة، كانت الكبرى تعمل فى مكتبة، وقد اختصت بدور «صندوق البريد» وكان الاتفاق أن تتخير ديانا الأوقات التى تخلو فيها المكتبة من الرواد وتنتقى كتابا ثم تسلم ما لديها من معلومات خلال دفع ثمن الكتاب، وكان طبيعياً أن تزور الصغرى أختها الكبرى عندما تسافر إلى أوروبا، ولكى تتعدد زياراتها، أوجدت لها وظيفة بشركة مصر للطيران، وهكذا انتظمت المعلومات من وزارة الدفاع الإسرائيلية ومكتب بن جوريون واتخذت الأموال نفس الاتجاه المعاكس!

كانت المعلومات التى ترسلها ديانا أثمن من أن تقدر بالمال، وكان ديان يترقب انهيار خصمه اللدود عقب منع الاموال السرية عنه.. ولذلك لجأ المصريون إلى حيلة ذكية عندما طلبوا من ديانا أن يقوم بيير بإعادة طبع كتبه، على أن تشترى المخابرات المصرية جميع النسخ.. وكان هذا هو سر رواج مؤلفات بيير!

أمدت ديانا المخابرات المصرية بأكثر من أربعمائة وثيقة، تضمنت تنظيم وزارة الدفاع الإسرائيلية، وخطط تسليح الجيش الإسرائيلى، وبيانات عن اعداد الألوية المدرعة والوحدات الملحقة ومخزون الذخائر وخطط تنظيم

التعاون بين القوات الجوية والبرية وقوائم بأسماء كبار القادة والضباط وعناوين إقامتهم! كما كان المصريون يطلعونَ أولا بأول على محاضر اجتماعات القيادة العليا، ولما كان بيير مستشاراً للأمن القومى، فقد كانت نظم الأمن على الحدود معروفة للقيادة المصرية، وأسهمت هذه المعلومات فى توسيع عمليات الكوماندوز المصريين داخل إسرائيل.. وأوحت اليها المخابرات المصرية أن يكتب بيير فى موضوعات معينة فتبنى فكرة قيام دولة علمانية تضم اليهود والفلسطينيين، وأشار إلى الحالة المزرية التى يعيش فيها اللاجئون، وعارض سياسة القمع والإرهاب التى تمارسها الدولة وسيطرة المؤسسة العسكرية!

أفرط بيير فى الشراب والملذات، وازدادت النوبات العصبية كما أثر مرض «باركنسون» على اتزانه وتحملت ديانا عبئاً كبيراً، وكاد صبرها ينفد عندما حاول بيير استعادة علاقته بإحدى عشيقاته القديمات «أورا» ودعاها إلى الإقامة معه.. ولكن المصريين نصحوها بالصبر.. وقبيل النهاية بنحو ثلاثة شهور، اتخذ بيير قراراً غريباً بنقل وثائق وزارة الدفاع إلى غرفة مكتبه بالبيت، وكانت ديانا تحصل على صورة من هذه الوثائق «الثمينة»!

وتتابعت الاحداث بصورة دراماتيكية حتى قبض على بيير وأسفر تفتيش مكتبه عن ضبط ثلاثين كيلو جراماً من الوثائق بالغة السرية! ومبلغ كبير من الدولارات.. ولم يكن بيت بيير بالمكان المناسب للاحتفاظ بهذه الأسرار، ومن المدهش أن ديانا كانت من الجرأة أن تحتفظ - بعد اعتقال بيير بعشرة أيام - بعدد ضخم من الأفلام وصور الوثائق، حتى تمكنت من توصيلها كالمعتاد، وكان ضمن الوثائق: المفكرة الشخصية لديفيد بن جوريون وكان بيير قد حصل عليها بحجة إعداد كتاب عن سيرة «بن جوريون» وأنه فى حاجة إلى معرفة بعض الأمور الخاصة! وكم كانت مفاجأة لضباط المخابرات المصرية عندما وجدوا بين أيديهم المفكرة الخاصة برئيس وزراء إسرائيل وما تتضمنه من أسرار ومعلومات بالغة الخطورة!

وأمام المحكمة، أنكر بيير جميع الاتهامات وعاد إلى اختلاق الأكاذيب واعترف بأنه لم يذهب فى حياته إلى أسبانيا وأنه لم يلتحق بأى أكاديمية، وزعم أن الأموال التى ضبطت بحوزته كانت وديعة من صديق ألمانى ثرى،

وبين شهود المحكمة، كانت ديانا تتشح بملابس سوداء، تذرف الدموع على عشيقها الذى أخلصت له حتى النهاية وصدر الحكم بسجنه خمس عشرة سنة، وكانت ديانا تزوره فى محبسه كل يوم.. وفى الثانى من مايو ١٩٦٢ صدر بيان رسمى بوفاة إسرائيل بيير.. ويسدل الستار على حياة رجل.. ولم يكن جاسوساً فحسب، بل أفاقاً خدع دولة بأكملها!!

جاسوس الشمبانيا

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، تزايد الوجود الألمانى النازى فى مصر، ممثلا فى عدد من العلماء وضباط الجستابو ورجال الفيلق الأفريقى ممن عملوا تحت قيادة روميل، حيث منحوا اللجوء السياسى -خاصة فى عهد عبدالناصر- وانتحل معظمهم أسماء عربية، بل إن بعضهم اعتنق الاسلام إمعاناً فى إخفاء هويتهم، فكان منهم العلماء الذين عملوا فى مجال تطوير صناعة الاسلحة فى مصر، بينما تولى بعض ضباط الجستابو السابقين مسئولية إعادة تنظيم جهاز أمن الدولة.

وعندما اكتشفت إسرائيل فى بداية الستينات، أن مصر قد تبنت مشروعاً طموحاً لصناعة وإنتاج صواريخ بعيدة المدى، قادرة على ضرب أهداف خارج حدودها، و قررت أن تحطمه دون اللجوء إلى حرب، فاقتصرت على التخريب من قلب المواقع المصرية التى أنيط بها تصميم وتصنيع هذه الصواريخ -تحت إشراف وزارة الدفاع المصرية والاستخبارات العسكرية للقوات الجوية، بالاستعانة بمجموعة من هؤلاء العلماء والخبراء الألمان النازيين الذين عملوا فى بلادهم فى المجال نفسه.

وضعت الاستخبارات الإسرائيلية خطة لتصفيتهم جسدياً قبل الشروع فى الإنتاج، بواسطة الطرود الملغومة المرسلة من الخارج ومن داخل مصر أيضاً، كما تعقبت واغتالت آخرين فى أوروبا!

وبدأت الاستخبارات الإسرائيلية بتنفيذ خطتها مع بداية عام ١٩٦٣ حيث استعانت بعميل استخبارات ألمانى سابق هو: «أوتواسمكورزينى» الذى تعاون مع جهاز «الموساد» عن طريق ضابط الاتصالات فى باريس آنذاك: إسحق

يزرنتسكى «إسحق شامير» رئيس الحكومة الإسرائيلية الأسبق، الذى نجح فى تجنيد «فولفجانج لوتز» لإتمام هذه المهمة.

اشتهر «فولفجانج لوتز» «بلقب» «جاسوس الشمبانيا» لولعه المذهل بالشمبانيا وغيرها من أوجه الترف.. ولد فى ألمانيا عام ١٩٢١ لأم يهودية وأب غير يهودى، ورغم أنه لم يختن (مما ساعد - وفقاً - لما ذكره- على التدليل على صدق روايته التى كان يتستر خلفها)، كما عمل فيما بعد على إنقاذ حياته عندما اكتشف أمره، إلا أنه كان يعتبر وفقاً للشريعة اليهودية يهودياً حيث يكتسب الطفل-طبقاً لهذه الشريعة - ديانة أمه.

فى عام ١٩٣٣ هاجر لوتز إلى فلسطين مع أمه.. وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية التحق بالجيش البريطانى وأرسل إلى مصر حيث اشترك بعد ذلك فى تهريب الأسلحة للهاجاناه.

تميز لوتز بطول قامته الجرمانى وشعره الأشقر، مما أسهم فى إدعائه بأنه من النازيين الذين يمقتون اليهود. وقبيل وصوله القاهرة صدرت إليه التعليمات لاستخدام اسمه الشخصى كما استبقى شهادة ميلاده ووثائق هويته مع إزالة أصل أمه اليهودى منها، ثم قضى فترة التدريب الشاق التى لابد منها لأى ملتحق بالموساد حتى لو كان يتمتع بخبرة سابقة فى عمليات التجسس، ثم وصل إلى القاهرة مزوداً برسائل توصية أمكن الحصول عليها، إذ أن رؤساء أجهزة الاستخبارات الغربية الذين تظاهروا بالحياد التام تجاه إسرائيل، كانوا ينظرون اليها كحليف سرى ينبغى مساعدته كلما أمكن، وبشكل غير رسمى وفى أواخر الخمسينات تدفقت هذه المساعدات من قبل كل من وكالة الاستخبارات الأمريكية «CIA» وهيئة الاستخبارات الألمانية الغربية، التى قدم رئيسها الجنرال «جيهلين» كافة الضمانات والتسهيلات.

اتخذ لوترون هيئة رجل ثرى مهتم بالخيول، واستغل المبلغ الضخم من المال الذى زوده به الإسرائيليون فى إنشاء مدرسة للفروسية للخيل فى ضاحية الزمالك وقد أمر بأن «يستلقى» «Lielow» أو بتعبير آخر أن يبقى «نائماً» (To act as sleeper) لمدة عام قبل البدء فى أنشطته التجسسية.

أقام لوتز صداقات مع بعض العلماء الألمان العاملين بمؤسسات أبحاث الصواريخ والطيران، كذلك مع العديد من كبار الضباط فى الجيش المصرى

كان على رأسهم اللواء يوسف على غراب رئيس الشرطة العسكرية، وبعض الشخصيات وثيقة الصلة بالرئيس عبدالناصر وبعد توطيد صلاته فى مصر، سافر «لوتز» إلى أوروبا لمقابلة رئيسه الإسرائيلى.

زعم لوتز أنه فى ٣ يونيو ١٩٦١ قابل شقراء فاتنة فى قطار، فوقع فى حبها وتزوجها سريعاً وأقنع الإسرائيليين -رغم شكوكهم- بالسماح لها باصطحابه عند عودته إلى مصر، ومع ذلك فهناك رواية أخرى تؤكد أن خبراء الموساد الإسرائيلى- عند تحديدهم لأفضل طرق التعمية- كانوا يعتقدون اعتقاداً جازما أنه سوف يساعد لوتز ويضيف الى مصداقية هويته المزعومة أن يتخذ الزوجة الأوروبية النموذجية إن استطاع، لكن كانت هناك عقبة تتمثل فى وجود زوجة له بالفعل، كانت- لسوء الحظ- نموذجاً شمال أوربى لكنها فتاة إسرائيلية نمطية أنجب منها طفلين، مع هذا فإن ترتيبات حذرة قد نفذت، وحينما أشير إلى أن إجراءات معينة يجب أن تتخذ من أجل «شرف وأمن» إسرائيل، فإن الزوجة الوطنية ذات الولاء قد وافقت أخيراً على الزيجة المقترحة! ومن ثم وافق زوجها على أن «يتزوج» من الألمانية الشقراء التى كان اسمها «فالتراود نويمان».

فى القاهرة قابل «لوتز» رجلاً يدعى «هينرويش بولتر» وزجتة «كازولين» كان دكتور بولتر أثرياً ألمانيًا ورئيسا لبعثة من جامعة «بيل» مما جعله يقضى شهوراً طويلة فى صعيد مصر للبحث والتنقيب، بينما كانت زوجته وطفلة الصغير يبقيان فى القاهرة فى فيلا تقع قرب مسكن «لوتز» وكانت الزوجة «كارولين» تزعم أنها نصف مجرية وتنفى وجود أى علاقة لها بألمانيا رغم أنها كانت تتحدث الألمانية بطلاقة!

وقد ارتاب فيها «لوتز» لأنها كانت تحاول دائماً الحصول على معلومات عن الصواريخ لأنها كانت، إذا سكرت قليلاً، تشرع فى التحدث بلغة «اليديش» وقد حاولت أيضاً أن تقيم صداقة مع «ماركيس كنوبفر» زوجة أحد خبراء الصواريخ الألمان القياديين والتحقت السيدة «بولتر» بنادى هليوبوليس الرياضى، الذى كان يبعد نحو ساعة بالسيارة عن منزلها، ذلك لأن السيدة «كنوبفر» كانت عضواً به، لكنها السيدة «بولتر» لم تذهب مطلقاً إلى أى من النوادى القريبة من منزلها.

كان مكتب «كارل كنوبفر» يجاور منزله مباشرة، من حجرة نومه كان يمكن للمرء أن يرى إحدى حجرات مكتبه حيث كان يحتفظ برسومات تفصيلية لتصميمات الصواريخ!

وقد أبقى «كنوبفر» دائما شيش حجرة نومه مغلقاً والباب مغلقاً بالمفتاح لكنه كان يترك المفتاح فى الكالو!.. وذات ليلة أسر كنوبفر الى لوتز أنه يعتقد أن «كارولين بولتر» جاسوسة إسرائيلية لأنها، فى ذلك اليوم، كانت قد قابلت زوجته فى النادى، سألتها أن توصلها بالسيارة، قد تعلقت بالسيدة «كنوبفر» بطريقة لم تجد الأخيرة معها بداً من أن تدعوها للشراب، وبينما كانت السيدة «كنوبفر» فى المطبخ تعطى بعض التعليمات للطاهى الخاص، اختفت «كارولين بولتر» من غرفة الاستقبال تحيرت السيدة «كنوبفر» وذهبت للبحث عنها فوجدتها فى غرفة النوم، الباب مفتوح والشيش مفتوح، والأكثر من ذلك أنها كانت تلتقط صوراً فوتوغرافية من نافذة غرفة النوم. وقد اعتذرت متلعثمة بأنها كانت تبحث عن كرة طفلها وقال «كنوبفر» أنه سوف يبلغ الأمر للسلطات المصرية.

انتهى «لوتز» إلى أن المرأة تعمل فى الغالب لصالح الاستخبارات الإسرائيلية، وإلى أنه يجب أن يحول دون القبض عليها، وهكذا أخبر «كنوبفر» متعللاً بأنه مادام لم يأخذ الفيلم من الكاميرا الخاصة لها فهو لا يملك دليلاً ومن ثم فإنه سيطلب ممن لهم صلات به فى جهاز الأمن المصرى وضعها تحت المراقبة إلى أن يتم التوصل إلى «حبل يكفى لشنقها»! وافق«كنوبفر»، وفى الصباح التالى بعث «لوتز» برسالة لرؤسائه فى إسرائيل عبر جهاز إرسال لاسلكى كان يخبئه داخل «تواليت» حمام شقته! قائلاً إنه من الواضح أن المرأه تعمل لصالح مؤسسة ما مقترحاً أنها إذا كانت تعمل لصالح الاستخبارات الاسرائيلية فيجب سحبها سريعاً!

فى ظهر اليوم التالى تلقت السيدة برقية من عمتها فى ألمانيا تقول إنها تعانى آلاماً قاسية نتيجة مرض خبيث ألم بها ، وترجوها أن تعود سريعاً لتراها قبل أن تفارق الحياة.

غادرت مصر بالفعل مع طفلها فى تلك الليلة! وفى صباح اليوم التالى تلقى «لوتز» رسالة شكر من إسرائيل!

أخيراً تم ضبط «لوتز» وهو يقوم بإرسال معلوماته بعد أربعين يوماً فقط من اكتشاف الجاسوس المحترف «ايلى كوهين» فى سوريا!

وقبض أيضاً على زوجة لوتز وبعض وثيقى الصلة بهم، واستمرت المحكمة من ٢٧ يوليو حتى ٢١أغسطس ١٩٦٥نجح «لوتز» فى الإفلات من عقوبة الإعدام بالإصرار على أنه ألمانى وليس إسرائيلياً. وقد حكم عليه بالسجن المؤبد وعلى زوجته بثلاث سنوات (عندما اطلق سراحهما، عام ١٩٦٨، ذهبا إلى اسرائيل). خلال المحاكمة تبين أنه كانت فى حوزته كمية من المتفجرات، وقد أدين أيضاً بـ «التسبب فى الإضرار البدنى البالغ برعايا أجانب يخدمون حكومة الجمهورية العربية المتحدة» والشروع فى قتل رعايا أجانب يخدمون حكومة الجمهورية العربية المتحدة ومواطنين من الجمهورية العربية المتحدة بواسطة متفجرات خطرة».

وخلال المحاكمة شرح «لوتز» أن ضابطاً قد «دس لى المتفجرات التى وجدت فى حوزتى...» وشهد مدير مكتب بريد «بأنه قد فقد عينا حينما إنفجرت فى يده رسالة موجهة إلى أحد العلماء الألمان»، ورغم أن الاستخبارات المصرية قد استغرقت بعض الوقت لتتبع جهاز الإرسال للوصول الى «لوتز» فإن رسائله كلها قد سجلت، بعض هذه الرسائل قرىء جهراً فى المحكمة: إحداها كانت الرسالة التى تنصح الاسرائيليين باستدعاء «كارولين بولتر» وأخرى تقول : لم تتفجر الرسالة التى بعثت إلى كرمير وانفجرت رسالة أخرى فى مكتب بريد المعادى، وكان لهذا أثر قوى على العلماء الألمان».

وفى رسالة أخرى «إنى واثق بأننا نستطيع أن نرغم المزيد من العلماء الألمان على الرحيل بإرسال المزيد من رسائل...» فى البداية أصر «لونز» على أن الرسائل الحاوية للمتفجرات كانت مجرد خطابات تهديد، لكنه فى النهاية عندما تذكر أن رسالته التى يطلب فيها المزيد من المتفجرات قد ضبطت، اعترف بأن بعض الرسائل ربما كانت تحوى متفجرات. وفى المحاكمة ذكر ممثل الادعاء أيضا أن «لوتز» قد حل محل جون ليون توماس «الجاسوس الإسرائيلى الذى أعدم: وقد ضبط فى الخامس من يونيو عام ١٩٦١ ووصل «لوتز» مصر بعد ذلك بيومين وأثناء وجوده بالسجن التقى «لوتز» بثلاثة جواسيس إسرائيليين آخرين كان محكوما عليهم بالحبس، وصار صديقا

مقريا لهم، وهم روبرت داسا و «فيكتور ليفى» و «فيليب ناتانسون» كما التقت زوجته بـ «مارسيل نينيو» فى سجن النساء وهؤلاء الأربعة كانوا شبكة التجسس التى تولت حملة التخريب والإرهاب ضد وطنهم الأصلى مصر والتى إشتهرت باسم «فضيحة لافون» عام ١٩٥٤.

وصدر الحكم بسجن لوتز مدى الحياة، وثار جدل كبير فى إسرائيل حول مدى الاستفادة من مثل هذه العمليات الخاسرة وتكرار فشل مؤسسة «الموساد» فى قضية لافون غير أنه أفرج عن لوتز مع روبرت داسا وليفى ناتانسون ومارسيل فى عام ١٩٦٨، عقب اتفاق بمبادلتهم بـ ٥ آلاف أسير مصرى، وقعوا فى الأسر خلال حرب يونيو ١٩٦٧.

نهاية عميل سرى..!

فى ١٨مايو ١٩٦٥ غادر كوهين زنزانته لآخر مرة.. فقد انقضى سبعة عشر يوماً على الحكم الذى صدر بإعدامه، ومضى مائة يوم منذ القبض عليه.

فى ميدان «المرجه» النشاط كبير، رغم الساعة المتقدمة بعد منتصف الليل وجمهور غفير يملأ الميدان فى حراسة جنود الشرطة بخوذاتهم، جمهور مثل الذى كان يرتاد حفلات «السيرك» فى عهد الرومان!..

وبعد ساعتين وصل إلى الميدان نحو خمسين من الصحفيين والمصورين، الأنوار الكاشفة تسطع فى الميدان وتجعل «فندق الأمويين» يبدو كواجهة مسرح والهواء عليل ومحمل بالعطور!

وفى الساعة الثانية صباحا ظهرت سيارة عسكرية قادمة من سجن «المزة» على بعد ١٢ كيلو مترا جنوب دمشق واتجهت نحو مركز البوليس القريب من الميدان، نزل كوهين وسط حراسة وهو شاحب اللون وعيناه غائرتان، مركز البوليس مكتظ بالحركة، جلس كوهين، رئيس المحكمة التى حكمت عليه بالإعدام «الكولونيل صلاح الدالى» يقترب منه ويسأله عما إذا كانت لديه رغبة أخيرة طلب.. ورقة وقلم حبر وكتب رسالته الأخيرة إلى زوجته وأولاده.

ثم قيدت قدماه بشكل يسمح له بالسير، كما قيدت يداه خلف ظهره واقترب منه الكولونيل صلاح الدالى مرة ثانية وسأله: «هل لك شركاء آخرون غير الذين ذكرتهم؟ فنظر إليه كوهين وهز رأسه ببطء وقال: «لا ياسيدى الرئيس» وابتعد الكولونيل وخرج كوهين من مركز البوليس وسار إلى المشنقة المنصوبة وسط الميدان.

كان الحاخام الأكبر فى انتظاره رفع صلواته إلى الله بأن يجعل كوهين من اليهود الاتقياء!

الكولونيل صلاح الدالى يسأله سؤالا أخيرا: «هل لك نقود فى سوريا أو غيرها تريد أن تتركها لأى أحد؟.. لم يعد عندى مال لم يعد عندى شىء ياسيدى الرئيس!

وأصبح كوهين ملكا للجلاد.. إنه يرتدى بدلة أنيقة وقميصا بياقة مفتوحة ألبسوه من فوقها جلبابا واسعًا أبيض ووضعوا عليه لافتة صغيرة تحمل هذه الكلمات: «إلياهو كوهين - جاسوس إسرائيلى - محكوم عليه بالإعدام شنقا».

وفى أثناء وضع الحبل حول عنقه التفت كوهين ورأى أمامه واقفاً ينظر إليه بانتباه ونفس الحركة الخفيفة التى ترجف فى ركن فيه، نفس الضابط الذى كان قد حضر إلى شقة كمال أمين ثابت فى صباح أحد الايام ليقبض عليه وهو نفس الضابط الذى أعلن بعد ثمانين ثانية بأن إيلى كوهين قد مات كانت الساعة الثانية وخمسا وثلاثين دقيقة.. فأطفئت الأنوار الكاشفة وبقيت الجثة معلقة حتى الساعة التاسعة.

بعد سقوط أمين الحافظ الذى طُرد من قصر الرئاسة تحت قصف المدافع والذى أصيب بجرح خطير فكرت الحكومة فى محاكمة الكولونيل صلاح الدالى، كان القادة الجدد يتهمونه بأنه أخفى بعض معالم القضية وكانوا يرغبون فى إثارة قضية جديدة لفضح بعض اعدائهم من الحكومة السابقة الذين سقطوا معها، وكانوا يأخذون على الكولونيل الدالى أنه أخفى أن زوجته الثانية، وهى شابة إيطالية تعمل مضيفة جوية فى شركة الطيران السورية كانت تتولى حمل بريد إيلى كوهين وتسليمه فى أوروبا وكانوا يتساءلون: كيف نجح الكولونيل صلاح الدالى فى إخماد هذه الفضيحة!

كان راديو دمشق يرد على الحملة العالمية التى تهاجم سوريا فيقول: إن إيلى كوهين ليس الجاسوس الإسرائيلى الوحيد الذى عمل فى البلاد العربية بل إن كثيرين مثله يعملون فيها والسلطات لا تتخذ اللازم للتخلص منهم!

إن كان السوريون قد اعترضوا على عودة جثمان إيلى كوهين إلى إسرائيل فإنهم قد سمحوا بتسليم خطابه الأخير الذى كتبه إلى زوجته قبل اعدامه

ببضع دقائق، كانت الرسالة محررة باللغتين الفرنسية والعربية تحمل وداعه ووصيته الأخيرة!

لم يكن ثمة شئ ينبئ بأن إيلى كوهين «جاسوس دمشق» سوف يقوم بالدور الذى لعبه على المسرح العالمى، ولد فى مصر بالاسكندرية وشب وسط إحدى هذه العائلات من البورجوازية الصغيرة اليهودية فى البلاد، كان والده تاجرا ويقال إنه كان يجب التمتع بالحياة ولعب القمار وكان يتبارى فى لعبة «الطاولة» لساعات طويلة فى مقاهى الاسكندرية على الكورنيش، كان الصبيان يلعبون امامه على الرصيف الحجرى ويقذفون الطيور بالطوب ولكن مسيو كوهين (الأب) لم يكن يلتفت إلى حركة الشارع من شدة انهماكه فى اللعب ويقولون أيضا إنه كان - إذا ما خسر - يصب غضبه على زوجته ويسئ معاملتها، تأثر الشاب إيلى من هذه المشاجرات بين والديه واعتاد الصمت حتى صار كتوما عندما كبر وفيما بعد أصبح هذا الصمت اهم صفاته.. إن مقدرته على الانطواء جعلت منه رغم أنفه هذا الرجل صاحب الانتصارات الصامتة الذى لم يشتهر ولم تتسلط عليه الأنوار الساطعة إلا بمناسبة فشله وموته!

شهادة اللواء صلاح الدالى حول قضية كوهين

مازالت قضية «كوهين» تثير كثيراً من القصص والحكايات التى صاغت معظمها المخابرات الإسرائيلية فى إطار من الدعاية والتضليل السياسى والإعلامى، بهدف إظهار جهاز «الموساد» وكأنه صاحب اليد الطويلة القادرة على اختراق جميع البلاد العربية،والوصول إلى مواقع القرار والأسرار،ولكن عندما يروى الحقيقة أحد الرجال الذين ساهموا فى الكشف عنها وهو اللواء «صلاح الدالى» فإن الحديث يبدو أكثر تأثيراً ووضوحاً،كاشفاً عن الكثير من الجوانب الغامضة فى هذه القضية التى لاتزال تشغل اهتمام الرأى العام:

بداية يفترض اللواء صلاح الدالى الضابط السورى المتقاعد ورئيس المحكمة العسكرية التى حكمت على كوهين بالإعدام، أن هذا الأخير قد يكون أحد اليهود الذين عاشوا فى مدينة دير الزور شرق سوريا، مؤكداً وجود شبه وتشابه كبير جداً بين الجاسوس كوهين وبين تاجر يهودى سورى من دير الزور، كان يدعى (كرجى) ويمتلك محلا تجاريا لبيع الألبسة الجاهزة فى الشارع العام وسط المدينة وبالقرب من حلاق يدعى حمدى الخضر،كان المؤلف يحلق ذقنه وشعره عنده.. ويضيف الدالى: أنه فى عام ١٩٤٨ أثناء نكبة فلسطين، قامت مظاهرات فى دير الزور تستنكر المذابح التى قام بها اليهود وأثناء مرورها بالشارع العام وأمام محل التاجر (كرجى) قام

المتظاهرون بتحطيم واجهة محله، الأمر الذى دفعه إلى مغادرة المدينة إلى جهة مجهولة خوفاً مما قد يحدث له من غضب الجمهور.

ويؤكد أن صورة كرجى،ظلت ماثلة فى ذاكرته وعندما ألقى القبض على الجاسوس كوهين، ووقع نظر الدالى عليه شعر بأن كرجى أمامه وبادره بالسؤال عن صلة القربى بينه (كوهين) وبين المدعو كرجى، مشيراً إلى أن كوهين دهش لطرح السؤال وأحس أنه، اكتشف حقيقته فارتعد وارتعش لأن اسم كرجى متداول بين اليهود.ويضيف إن لليهودى الشرقى صفات معينة فى الوجه والأنف وانحناء الظهر،وهى كلها كانت تنطبق على الجاسوس كوهين.ومنها أن كوهين كان على درجة كبيرة من البخل الذى وصل إلى حد التقتير على نفسه،وذلك بخلاف كل المعلومات التى نشرت عنه سابقاً،والتى ادعت بأنه كان يبذخ كثيراً وينفق المال على إقامة الحفلات والموائد فى دمشق.

والدالى يؤكد أن ذلك كله مجرد كذب وافتراء حيث يقول إن كوهين لم يقم حفلة على الإطلاق وأن الدعوات كانت تأتيه من الآخرين طمعاً فى التعرف عليه كونه ثرياً ومغترباً وتاجراً وله مشاريع تجارية كثيرة فى بلاد الله الواسعة.. فقد قدم إلى سوريا على انه مغترب من الأرجنتين باسم كامل ثابت أمين ويضيف المؤلف: إن الجميع كانوا يريدون أن يزوجوه طمعاً فى ماله. ولهذا لم تتقطع الدعوات للغداء أو العشاء أو السهرات أو أكلات التبولة.

وإنه لم يسبق أن دعا أى شخص إلى بيته سوى معزى زهر الدين،وكان معزى يقدمه لكوهين أثناء حضوره إلى مدينة أدلب لزيارته ويؤكد الدالى أن الإعلام العربى والصهيونى هو الذى رسم صورة غير حقيقية عن بذخ كوهين،وذلك حتى يوهم الرأى العام العربى والعالمى بأن هذا الجاسوس استخدم المال من أجل تحقيق الاختراق للمجتمع السورى! ويرد الدالى على الكثير من الافتراءات والأضاليل التى حاولت المصادر الصهيونية ترويجها عن كوهين والدور الذى قام به أثناء وجوده فى سوريا.ويتوقف بصورة خاصة عندما ورد فى كتاب «الجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستة» حيث جاء فيه إن كوهين خطط لانقلاب ٨ مارس الذى أوصل حزب البعث إلى السلطة، وساهم فى وضع قرارات التأميم وأنه انتخب عضواً فى القيادة القطرية

وكذلك القومية لحزب البعث ورشح وزيراً للإعلام ونائباً لوزير الدفاع وأنه هو الذى أحبط محادثات الوحدة الثلاثية وتوسط بين الرئيس أمين الحافظ وتجار دمشق،وهو الذى أعاد صلاح البيطار إلى رئاسة الوزارة من الأردن إلى سوريا، وضرب مدينة حماة، وخطط لضرب مشروع تحويل نهر الأردن، ويؤكد الدالى أن ما ورد فى محاضر محاكمة كوهين يدحض كل هذه الأكاذيب، موضحاً أن جواز سفر كوهين لم يتم العثور فيه على تأشيرة لدخول الأردن، كما يدعى مؤلف كتاب « الجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستة» ويكشف كوهين أمام المحكمة أنه لم يسافر إلى الأردن،وبالتالى لم يكن له أى دور فى إعادة البيطار إلى سوريا، كما ينفى المؤلف أن يكون كوهين، تعرف على أمين الحافظ أثناء وجوده فى الأرجنتين،مؤكداً أن أمين الحافظ سافر إلى الأرجنتين ووصل إليها ليلة رأس السنة لعام ١٩٦٢،كما هو ثابت فى جواز سفره، وأنه قضى تلك الليلة فى الفندق وحيداً،فى الوقت الذى كان فيه كوهين على ظهر الباخرة من نابولى إلى الإسكندرية، ومن ثم إلى بيروت،حيث وصل إليها يوم ١٩٦٢/١١/٨، وأمضى يومين فى بيروت، سافر بعدها مع مجيد شيخ الأرض العميل السرى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية إلى دمشق يوم ١٩٦٢/١/١٠، معتبراً أن ذلك ينفى كل ادعاء بأن كوهين تعرف على أمين الحافظ فى الأرجنتين، ويضيف أن من بين كل الشخصيات التى تعرف عليها كوهين أثناء وجوده فى سوريا لم يكن هناك أى واحد ممن هو قيادى أو وزير أو ذى مرتبة عالية فى الدولة بل كلهم من التجار والناس العاديين! موضحاً أن هناك ثلاثة أشخاص ساندوه،وهم: مجيد شيخ الأرض «عميل المخابرات المركزية» ومعزى زهر الدين ابن شقيقة رئيس الأركان - آنذاك - وجورج سيف مدير الدعاية والأنباء فى تلك الفترة.ويؤكد اللواء الدالى أن الموساد الصهيونى،هو الذى أراد هذا المصير للجاسوس كوهين بالموت شنقاً فى دمشق،موضحاً أن الكيان الصهيونى الذى لم يكن جاداً فى إنقاذه وكان قادراً على ذلك لو أنه استخدم الإمكانات التى كانت متاحة لديه آنذاك بالرغم من الضجة الإعلامية والسياسية والدبلوماسية التى أثارتها إسرائيل بعد القبض عليه ومحاكمته،والحكم عليه بالإعدام ،ويكشف المؤلف موشتى ديان أنه طلب من الملكة إليزابيث الأم التى كانت تزور بلجيكا لكى تتدخل لإنقاذ إيلى الذى كان بمقدوره الضغط على الموساد الذى استطاع

خطف أنجمان من الأرجنتين التى تبعد آلاف الكيلومترات عن فلسطين، بإعداد خطة لاختطاف رئيس المحكمة العسكرية السورية آنذاك،وهو المؤلف اللواء صلاح الدين الدالى أثناء زيارته للأردن خلال الفترة من ١٩ - ٢٠ مارس ١٩٦٥،وذلك قبل أيام من صدور الحكم ضد كوهين،وهو لا يبعد سوى عشرات الأمتار من الحدود مع الأردن،ويضيف إن الزيارة استمرت عشرة أيام وشملت مدينة قلقيلية والقدس الشرقية وبوابة «مندلبوم» التى يمر منها كوهين إلى الأردن ومن ثم سوريا وأن الكثير من أصحاب المحلات التجارية تعرفوا عليه، أى رئيس المحكمة العسكرية السورية مؤكداً أنه أمضى عشرة أيام فى الأردن والضفة الغربية،وكان بمقدور جهاز الموساد أن يقوم باختطافه شخصياً، والمساومة عليه لإطلاق سراح كوهين،ولكن هذا لم يحدث بالرغم من أن إسرائيل كانت تتعقب زيارة الوفد السورى لحظة بلحظة، وهو يؤكد أنه كان باستطاعة الموساد إنقاذ حياة كوهين ولكنه لم يفعل بالرغم من أن رئيس الموساد قد أبلغ كوهين قبل سفره إلى سوريا بأنه إذا حدث له شئ «نهاجم دمشق وننقذك». وبالفعل فقد اكتشف كوهين، وهو فى السجن أنه خدع من قبل رؤسائه بالموساد وأن إسرائيل لم تفعل شيئاً لإنقاذه ربما لأنه كان من اليهود الشرقيين،حيث إن التمييز العنصرى على أشده!

ويميط اللواء الدالى اللثام عن حقيقة المهمة التى أوفد كوهين لأجلها إلى سوريا فى البداية،وهى لم تكن بقصد التجسس وجمع المعلومات عن سوريا،بل من أجل البحث عن مساعد الضابط النازى أنجمان،الذى تم اختطافه من الأرجنتين إلى إسرائيل،فقد كان مساعده هو لويس برونر الذى توفرت لدى المخابرات الصهيونية (الموساد) معلومات عن أنه موجود فى دمشق، وطلبت من كوهين تعقبه والعثور عليه بأى ثمن،وأمضى الجاسوس الصهيونى قرابة الستة أشهر وهو يبحث فى دمشق عن برونر أو شبيه له ولكن دون جدوى. وبعد عودته إلى فلسطين المحتلة، حيث تم تعليق مهمته من قبل الموساد عرض كوهين على المخابرات الصهيونية أن تعيده مرة أخرى إلى دمشق بعد أن كون شبكة من العلاقات مع تجار ومسئولين، وبالتالى صار وجوده فى سوريا أمراً مفيداً للموساد! وبسبب هذا الإلحاح أعيد كوهين إلى سوريا حتى لقى مصيره. أما الأمر المهم الآخر الذى يؤكده المؤلف،فهو تأكيده

أنه ليس للقاهرة أى علاقة بموضوع المساهمة فى الكشف عن إيلى كوهين،موضحاً أن الحكومة السورية أرسلت كتابا رسميا إلى الحكومة المصرية تسألها عن هذا الموضوع الذى تم نشره فى الصحف، فأرسلت الحكومة المصرية كتاباً تنفى فيه نفياً قاطعا هذه المعلومات، مؤكدة أنه ليس لديها أى معلومة بهذا الخصوص.ويضيف إنه تبين أخيرا أن هذا الموضوع ملفق تلفيقاً من عبد الهادى البكار وغسان كنفانى حيث نشر اعترافهما بإحدى الصحف اللبنانية،الأمر الذى يؤكد أنه لا علاقة للمخابرات المصرية فى الكشف عن كوهين.ومن النقاط الأخرى التى يثيرها الكتاب نفيه لكل الاتهامات التى وجهت إلى سليم حاطوم حول علاقته بكوهين،مشيراً إلى أنه كان عضوا فى المحكمة العسكرية التى حاكمته.ويقر الكتاب أنه تم الكشف عن كوهين، بعد شكوى تقدمت بها السفارة الهندية بدمشق،من أن الوقت الذى بث فيه لاسلكيا، يتعرض للتشويش، تمت محاصرة المنطقة وفاجأت المخابرات السورية كوهين فى شقته،وألقت القبض عليه،ومن ثم أودع السجن وطويت الأسطورة!

وبعد..ليس من عادة أجهزة الاستخبارات أن تجعل من عملائها أبطالاً أو «وحوشاً مقدسة»!..فأكثر العملاء السريين نجاحاً وفاعلية هم الذين يعيشون ويموتون مجهولين، والجواسيس الذين حفظت أسماءهم ذاكرة التاريخ ونشرت حكايات انتصاراتهم الصامتة، لم يبرزوا إلى الشهرة إلا بفعل الظروف، ويكونون فى عداد الموتى!

ومعلوم للعالم أجمع أن الكيان الصهيونى قام على «الإرهاب» وظل يمارس «ارهاب الدولة» حتى يومنا هذا.وكيان دولة العصابات يستخدم مخابراته فى سياسته وأعماله الارهابية بما فيها الاغتيالات!

وإذا كانت الاستخبارات الإسرائيلية تتباهى بإيلى كوهين وتعتبره «نجم الموساد» !..فإن الاستخبارات المصرية حققت عشرات من «الانتصارات الصامته» مخترقة الجدار الأمنى الإسرائيلى «الوهمى» وكان نجاح المخابرات المصرية -بلاشك -محصلة عرق ودم وتضحيات لاحصرلها،فى فترة عصيبة كان ابراز سماتها : غياب الوعى العام الصحيح بقضايا الأمن القومى..والأعمال البطولية التى قامت بها المخابرات المصرية لم تقتصر

فقط على اختراق المجتمع الاسرائيلى، وإنما أيضاً فى اقتناص عملاء اسرائيل.. وقد تحدثنا فى إيجاز عن بعض هذه الانجازات،والتى لم يكن أعظمها: تصوير «خط بارليف» من السويس إلى بورسعيد بأدق التفاصيل الميدانية وحتى عمق عشرة كيلو مترات تقديم هذه الصور الى كافة التشكيلات الميدانية بطول المواجهة،وكل ما سبق حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان جبلاً من الاسرار المغلقة والمركبة، ومع ذلك فشلت مخابرات «عدونا التاريخى» وأجهزة المخابرات العالمية فى توقع هذه الحرب .. لقد تحقق لرجال المخابرات المصرية والسورية النصر فى حربهم السرية، فكانت حرب اكتوبر أعظم أمجاد العرب فى العصر الحديث وإن كان السياسيون قد أضاعوا ما حققه العسكريون!

عرفة عبده علي

- عضو اتحاد الكتاب
- نشر له العديد من الدراسات والمقالات بالصحف والدوريات المصرية والعربية.
- تخصص فى تاريخ اليهود فى مصر، وتاريخ القاهرة ومعالمها.
- بدأ الكتابة عام ١٩٨٧ بنشر سلسلة دراسات تناولت الاختراق الفكرى الصهيونى للمجتمع المصرى وعصر الامتيازات الأمريكية، والكشف عن نشاط المركز الأكاديمى الإسرائيلى بالقاهرة.. وبضغط من مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلى أجبر على تقديم استقالته من المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة.. ووضع على قائمة «الموساد»!!.. (روزاليوسف فى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٦).

أعماله:

(١) تهويد عقل مصر، دار سينا للنشر، ١٩٨٩م (نشر أيضا حلقات مسلسلة بجريدة الوطن الكويتية).

(٢) رحلة فى زمان القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٩٩٠م.

(٣) جيتو إسرائيلى فى القاهرة، مكتبة مدبولى، ١٩٩٠م.

(٤) وصف مصر بالصورة، دار الشروق، ١٩٩٣م، يعاد طبعه حاليا باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية، رشح لجائزة الشرف الأولى

بمعرض فرانكفورت الدولى ١٩٩٦.
(٥) ملف اليهود فى مصر الحديثة، مكتبة مدبولى، ١٩٩٣م (نشر أيضا حلقات بجريدة الشرق القطرية ـ ١٩٩٦).
(٦) قراءة فى الفكر الإسرائيلى المعاصر (حلقات مسلسلة بجريدة الشرق القطرية ١٩٩٧).
(٧) موالد مصر المحروسة، دار عين للدراسات، ١٩٩٧م.
(٨) يهود مصر.. بؤساء وبارونات!.. ايتراك، ١٩٩٧م (نشر حلقات مسلسلة بجريدة الخليج الإماراتية - ١٩٩٨).
(٩) القاهرة فى عصر إسماعيل، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨م.
(١٠) القاهرة بالفرشاة الأوروبية، وزارة الثقافة، ١٩٩٨م.
(١١) مملكة الأقطاب والدراويش، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٨م.
(١٢) رمضان فى الزمان الجميل، كتاب الجمهورية، ١٩٩٩ (١٣ طبعة).
(١٣) يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
(١٤) تحالف الحاخام.. والجنرال! الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.
(١٥) القدس العتيقة.. مدينة التاريخ والمقدسات، الكتاب رقم ١ (فى سلسلة «هوية المكان» هيئة قصور الثقافة - ٢٠٠٧).

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
تقديم	٥
البداية كانت من مصر	٩
الجاسوس الساحر..!	٣٥
ذكريات من الإسكندرية	٤٠
مولد جاسوس!	٤٣
كوهين فى دمشق	٥٩
لعبة الشطرنج المعقدة!	٨١
حكايات أقنعة	٩٠
الجاسوس وعشيقته	٩٩
جاسوس الشمبانيا	١٠٨
نهاية عميل سرى	١١٤
شهادة اللواء صلاح الدالى	١١٧

رقم الإيداع : ١٠٠١١ /٢٠٠٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N -977-236-633-1

طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة